مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم

«١١»

الوَحْيُ والنُّبُوَّةُ والعِلْمُ

في سُورَةِ يُوسُفَ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

الوحي والنبوة والعلم

في سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن حاجتَنا ماسّةٌ وشديدةٌ إلى الحِكَم الكبيرة، والأحكام الكثيرة، والمواعظ البليغة، في قصة يوسف عليه السلام، وخاصةً إلى الجانب الذي برز كمحور أساسي لموضوع السورة، وهو بيان حقيقة الوحي، وكونُه مصدراً من مصادر الحقيقة والعلم، وتقريبه بأسلوب علمي موضوعي إلى أذهان الناس، والرد على الماديين المنكرين له، والذين قصروا معرفة الحقائق على ما يخضع لحواسِّ الإنسان بواسطة العلوم التجريبية المحسوسة.

وقد جعلهم هذا ينكرون كثيراً من الحقائق الثابتة، ويرون أنها أمور غيبية تدخل في دائرة الظنِّ والحدَس والتخمين، أو في دائرة التخيلات والأوهام.

وإنني لأرىٰ أنَّ أمثلَ أسلوبٍ للردِّ عليهم وتزييفِ أفكارهم، هو أسلوب القرآن الكريم، الذي أنزله الحكيم العليم، والذي اعتمد على العقل والواقع.

لقد خاطب الله تعالى في كتابه الكريم جميع الناس على اختلاف

أفكارهم ومشاربهم ومستوياتهم، كما جادل جميع المخالفين والمعاندين من الماضين والمتأخرين والمحدثين، فلم ينزله الله لعصر واحد، كما هو حال الكتب السابقة، بل جعله سبحانه خاتم كتبه ورسالاته ووحيه، وخاطب به جميع الأجيال المتعاقبة إلى قيام الساعة.

وقد جاء الكتاب في فصلين:

الأول: تضمَّن الحديث عن المحن المتوالية التي مَرَّ بها يوسف عليه السلام.

والثاني: تحدَّث عن حياته عليه السلام بعد اجتيازه للمحن، وانتقاله إلى سُدَّة الحكم والسلطان.

وجاء في نهايةالفصل الثاني التعقيبات التي أوردها سبحانه على حوادث القصة.

وسيرى القارىء كثرةَ العِبَر والمواعظ المبْثوثة في كل كلمةٍ وآيةٍ من آياتِ السورة، والتي لا يمكن حصرها والإحاطة بها؛ لأنَّ معاني كلام الله لا يستطيع أحدٌ أن يحيط بها، فقد أبرزتُ منها ما ظهر لي مع إقراري بقصوري وعجزي.

أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم الدين وينفع به قارئَه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

عبد الحميد محمود طهماز

مكة المكرمة

١٠/٣/١٤٠٩

٢٠/١٠/١٩٨٨

مَوْضوع السُّـورَة

لا شك أن للقصة في القرآن الكريم حِكَماً جليلةً، وفوائدَ علميةً كبيرةً، إضافة إلى المواعظ الكثيرة والعِبَر البليغة، فكلامُ الله تعالى يتنزَّهُ عن اللغوِ والباطل وما لا فائدة فيه.

ولقد جاءت قصة يوسف عليه السلام في سورةٍ كاملةٍ دليلاً واضحاً على هذه الحقيقة، إذ ظهر فيها من الحِكَم والمواعظ والعبر شيء كثيرٌ لا يمكن استقصاؤه لتعذُّر الإحاطة بمعاني كلامِ الحكيمِ العليم في القرآن الكريم.

وما ذُكرت القصةُ كاملةً في سورةٍ واحدة استغرقت جميعَ آياتها تقريباً، إلا للاستفادة بما فيها من حِكَم وأحكام وعبر ومواعظ، وهذا ما قرره سبحانه وتعالى في مستهل القصة بقوله الكريم: ﴿ لقد كان في يوسُفَ وإخوتِه آياتٌ للسائلين ﴾.

وقرَّره أيضاً في التعقيب الأخير على حوادث القصة ووقائعها في آخر آيات السورة: ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبْرَةً لأولي الألْبَاب ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكن تصديقَ الذي بين يَدَيْه وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾.

وقد بَرَز من بين هذه الحِكَم الكثيرة والعبر البليغة موضوع السورة الأساسي الذي ركَّزت عليه آياتها، وأبرزته في كثير من حوادث القصة

ووقائعها، كما سيأتي معنا، وهو التأكيدُ على أنَّ القرآن الكريم وحيٌ من الله تعالىٰ، أُنْزِل على النبيِّ ﷺ، وأنَّ الوحيَ مصدرٌ من أعظم مصادر العلم والحقيقة، فالحقيقة لا تُعرف كلُّها بالعلوم التجريبية، وحواسِ الإنسان المادية، ثمَّةَ مصدرٌ آخر للحقيقة، لا يصل إليه إلا من اختارهم تعالى واجتباهم من الأنبياء والمرسلين، وهو الوحي المنزَّل من الله تعالى عليهم.

وقد أبرزت الآيات الأولى في السورة هذا الموضوع وأكَّدته بقوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نقصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإنْ كُنْتَ من قبله لمن الغافلين ﴾.

كما أكدته أيضاً في التعقيب الأول على حوادث القصة في قوله تعالى: ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾.

ويلاحظ القارىء أنَّ سورة يوسف اهتمت كثيراً ببيان صِلَةِ الوحي بالعلم وأنَّ الوحيَ مصدرٌ من مصادره، فعلمُ تعبير الرؤيا وعلومُ يوسف عليه السلام التي كانت سببَ نجاتِه من محنة السجن وتمكينه في أرض مصر وسلطانها، ممَّا علَّمه الله تعالى يوسُفَ بواسطة الوحي، ولهذا قال عليه السلام: ﴿ ذلك مما علَّمني ربي ﴾ وعلومُ يعقوب عليه السلام التي عَبَّر بها رؤيا يوسف وواجَه أيضاً بها أولادَه مما علَّمه الله بواسطة الوحي، ولهذا قال عليه السلام: ﴿ وأعلمُ من الله ما لا تعلمون ﴾ ووصفه سبحانه بقوله: ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾.

وكلُّ هذه العلوم جزءٌ من علم الله تعالى الذي وَسِع كلَّ شيءٍ علماً، والذي قال: ﴿ وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم ﴾، كما سيأتي معنا عند الحديث عن هذه الآيات في مواضعها إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

المحن المتوالية

التي مرّ بها يوسف عليه السلام

القرآنُ الكريم واللغةُ العربية

ابتدأ الله تعالى سورةَ يوسف بالتنويه بفضلِ القرآن الكريم وشرفه، فقال: ﴿ آلمر[1] تلك آياتُ الكتابِ المبينِ ﴾ [١]: أي هذه الآيات المنزَّلة على محمدٍ ﷺ آياتُ الكتاب الواضح الدِلالة على أنه كلام الله تعالى، وقد أنزله سبحانه باللغة العربية فقال: ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [٢].

فالقرآن الكريم عربي اللغة، أنزله سبحانه على النبي العربي سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ في أرض العرب، إذ قدَّر سبحانه أن تكون رسالة كل رسولٍ بلسان قومه، قال تعالى: ﴿ وما أرْسَلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه ليبيِّن لهم فيضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[2].

وقد جاء التأكيد على وصف القرآن الكريم بأنه عربي اللغة في عددٍ من الآيات الكريمة، منها: ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[3]، ومنها: ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلَّهم يتَّقون أو يُحْدِث لهم

---

(١) سبق الحديث عن مثل هذه الحروف في بعض أجزاء هذه السلسلة السابقة.

(٢) إبراهيم: الآية ٤.

(٣) الزخرف: الآية ٣.

ذكراً ﴾[1]، ومنها: ﴿ نَزَل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسانٍ عربيٍّ مبين ﴾[2] وغير ذلك من الآيات.

وكلُّ ذلك يدل دلالةً قاطعةً على أن القرآن الكريم عربي اللغة بجميع كلماته قال تعالى: ﴿ ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته ءأعجمي وعربي... ﴾ الآية[3]، وقال أيضاً: ﴿ قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون ﴾[4].

وما ذهب إليه بعضهم من وجودِ كلماتٍ قليلة غير عربية في القرآن غير صحيح، فالقرآن كلُّه عربي، وما من كلمةٍ فيه إلا كان العرب يتكلمون بها قبل نزوله.

ويدلُّ نزول القرآن الكريم باللغة العربية على فضلها وشرفها على سائر اللغات لأنه سبحانه اختارها لغةً لأفضل الكتب وأشرفِها، كما يدلُّ على أن اللغة العربية تمتاز بقدرتها الفائِقةِ على تأدية المعاني مهما كانت.

قال ابن كثير رحمه الله: القرآن المبين، أي الواضح الجليُّ الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأنَّ لغة العرب أفصحُ اللغات وأبينُها وأوسعُها وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس[5].

فكأنه رحمه الله يرى أنَّ القرآن الكريم كتاب مبين واضحٌ جليٌّ لأنه نزل بلغة العرب، أفصحِ اللغات وأبينِها وأوسعِها وأكثرِها تأديةً للمعاني.

---

(١) طه: الآية ١١٣.
(٢) الشعراء: الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٣) فصلت: الآية ٤٤.
(٤) الزمر: الآية ٢٨.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٩.

وهذا يفنِّد مزاعمَ القائلين بعجز اللغة العربية عن مسايرة ركب التطور العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبةٌ كبيرة وفِرْيَةٌ عظيمة على اللغة العربية، روَّجها أعداءُ الإسلام من المستشرقين، وأخذ بها مع الأسف كثيرٌ من المثقفين العرب، فعزلوا لغتهم العربية عن مجالات الدراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليات العلمية، وغفلوا عن حقيقة هامة، هي أن اللغةَ العربية كانت لغة الحضارة الإسلامية التي ضمَّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم التي كانت سائدة في العالم، الحضارة التي خلَّفت أكبر تراثٍ علمي وحضاري لأمة من الأمم.

وغفلوا أيضاً عن كون اللغة العربية لغة القرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، والذي أخبر عن كثير من الحقائق العلمية التي ما عُرفت إلا في العصر الحاضر، وقد ذهب بعض العلماء في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي عُقد في القاهرة سنة ١٩٨٦ م إلى المطالبة بجعل الكلمات القرآنية العلمية لأطوار خلق الجنين هي المصطلحات العلمية، ونادىٰ هؤلاء بتعميمها على سائر الأوساط العلمية، بسبب ما وجدوا من دقتها العلمية المتناهية في وصف أطوار الجنين وأحواله.

ولقد نجحت جامعة دمشق منذ تأسيس كلياتها العلمية نجاحاً باهراً في تدريس مختلف العلوم الطبية والهندسية والطبيعية باللغة العربية، وتمكَّن القائمون عليها من تعريب مختلف المصطلحات العلمية، فكانت بحق مثالاً علمياً عربياً يجب الاقتداء به.

وقوله تعالى: ﴿ إنا أنْزَلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ثم قوله سبحانه بعد ذلك مباشرة: ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإنْ كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [٣] يدلُّ على مرونة اللغة العربية وقدرتِها على تأدية مختلف المعاني بأفصح المباني وأوضحها، فأحسنُ

القَصص أنزلها سبحانه باللغةِ العربية، وهي في الأصل قصة غير عربية في أشخاصِها وأحداثِها، فالقصةُ عِبْرية، مع ذلك قصَّها الله تعالىٰ علينا في القرآن العربي المبين بأرفعِ بيان وأفصحِ كلام في سورةٍ واحدة، بأداءٍ واقعي كامل، رغم تنوّع الشخصيات والمواقف، ورغم كثرةِ العواطف والمشاعر ودقتها واختلافها، وكلُّ ذلك يدل على فضل اللغة العربية وشرفها وقدرتها على تأدية مختلف المعاني سواء كانت تاريخية أو علمية أو غير ذلك.

وعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة ويعقلوها ويفهموها، عليهم أن يدركوا حكمته سبحانه في اختيار لغتهم للتنزيل الحكيم ويعرفوا بذلك قدرَها ومكانتَها، وسرَّ قوله تعالى في أول سورة يوسف: ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾.

وإيراد القصة العبرية باللغة العربية يدلُّ أيضاً على أن القرآن الكريم وحيٌ من الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى يخاطبُ النبي ﷺ: ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَص بما أوْحَيْنا إليك هذا القرآن ﴾ فلا علاقة للنبي ﷺ بالقرآن الكريم سوىٰ أنه تلقَّاه بواسطة الوحي وبلَّغه للناس، وما كان ﷺ قبل نزوله عليه يتوقع نزوله ولا يتطلَّع إليه، فنزولُ القرآن الكريم على النبي ﷺ كان مفاجأة كبيرة له عليه السلام، كما قال تعالىٰ في ختام الآية: ﴿ وإنْ كُنْتَ من قبله لمن الغافلين ﴾ الذين لم يخطُر ببالهم ولم يقرع سمعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ وما كنت ترجو أن يُلقىٰ إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربِّكَ فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرين ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ أحسنَ القَصص ﴾ يدل على أن قصص القرآن يغني عن غيره من القصص، ففيه الأدبُ العالي الرفيع الذي يحكي واقع النفوس البشرية وما جُبِلت عليه من خير وشر بواقعية صادقة أمينة سليمة، فيها دروس

---

(١) القصص: الآية ٨٦.

كبيرة، وعظات كثيرة، وعِبَرٌ بليغة، سنشير إليها إن شاء الله تعالى في مواضعها.

رؤيا يوسف عليه السلام

وقعت أحداثُ قصةِ يوسُف في القرن السابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب، أي قبل نزولها على النبي ﷺ في القرآن الكريم بأكثر من ألفين وثلاثمائة سنة.

بدأت القصة في بيت نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله وخليله إبراهيم عليهم السلام، وكان يعقوب مقيماً في بادية فلسطين من أطراف بلاد الشام الجنوبية.

وكان ليعقوبَ عليه السلام اثنا عشر ولداً من زوجاتِه الأربع، فهم أولاد علاّت، أصغرهم شقيق يوسف عليه السلام.

ويشاء الله تعالى أن يرى يوسف رؤيا وهو لا يزال غلاماً صغيراً في نهاية العقد الأول من عمره على الراجح، يأتي إلى أبيه ليقصها عليه: ﴿ إذ قال يوسُفُ لأبيه يا أبَتِ إني رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [٤] كانت هذه الرؤيا محور القصة وبدايتها، وكان تحقّقها وتأويلها نهايتها السعيدة.

وعرف نبي الله يعقوب بعين النبوة التي تبصر الحقائق ولا تخطىء أنَّ الله تعالى قدَّر لولده يوسف مستقبلاً باهراً مشرقاً، وأنه سبحانه سيصطفيه ويجتبيه ويكرمه بكرامة النبوة التي أكرم بها من قبل آباءه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سئل أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم

الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»[1].

وأدرك يعقوب عليه السلام أيضاً أن إخوة يوسف سيخضعون له ويعظمونه ويَخِرُّون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، فنصحَ يعقوب ولدَه يوسف أن يكتم هذه الرؤيا. وخاصةً عن إخوته خوفاً عليه من حسدهم وبغيهم، فإنَّ كل ذي نعمةٍ محسود، كما جاء في الحديث الشريف: «استعينوا على إنجاح الحوائج بكتمانها، فإنَّ كل ذي نعمة محسود»[2].

﴿ قال يا بُنيَّ لا تقْصُص رُؤْياكَ على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾: أي فيحتالوا لك ليهلكوك أو يضروك بتزيين الشيطان وتسويله ﴿ إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبين ﴾ [٥].

ثم أخبره عليه السلام بأنَّ الله تعالى سيصطفيه ويشرِّفه بكرامة النبوة ﴿وكذلك يَجْتَبيكَ ربُّك﴾ أي: وكما أكرمك ربُّك بهذه البشرى التي أراكها في منامك، يختارك ويصطفيك ربُّك للنبوة.

تأويل الأحاديث

﴿ وَيُعَلِّمُكَ من تأويلِ الأحاديث ﴾: أي تأويل الرؤيا وتعبيرها، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسِّرين، حتى قال القرطبي رحمه الله: وأجمعوا أنَّ ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها[3].

والتأويل: ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، يقال: أوَّل الشيء إليه: أرجعه، وأوَّل الكلام: فسره وردَّه إلى الغاية المرْجُوَّةِ منه، وأوَّل الرؤيا: عَبَّرها[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.
(٢) رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم.
(٣) انظر: تفسير القرطبي ١٢٩/٩.
(٤) انظر: المعجم الوسيط.

والأحاديث: جمع حديث، وهو ما يتحدث به من كلام.

فالرؤيا التي يراها الإنسان في نومه مجموعة أحاديث تختلف باختلاف مصدرها، وقد بيَّن النبي ﷺ أقسام الرؤيا بحسب مصدرها فقسَّمها إلى ثلاثة أقسام:

١ - رؤيا صالحة بشرى من الله،

٢ - ورؤيا تحزين من الشيطان،

٣ - ورؤيا من حديث الإنسان مع نفسه.

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من ستةٍ وأربعينَ جزءاً من النبوة، وفي رواية: من خمسةٍ وأربعينَ، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث الإنسان نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدِّث بها الناس»[١].

والجدير بالذكر أن هذا التقسيم للرؤيا لغير الأنبياء عليهم السلام، فرؤيا الأنبياء وحي لا تسلُّط للشيطان عليهم، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فلما بَلَغَ معه السعيَ قال يا بنيَّ إنِّي أرى في المنامِ أنّي أذبَحُكَ فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤْمَر سَتَجِدُني إن شاء الله من الصَّابرين ﴾[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: أول ما بدىء رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح[٣].

الرؤيا عند علماء النفس

ويرى أكثر علماء النفس أنَّ الرؤيا التي يراها الإنسان في نفسه حديث

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الصافات: الآية ١٠٢.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

نفس مصدره نفس الرائي، فهي نشاطٌ نفسي للنائم، وهو ما ذهب إليه الفيلسوف القديم أرسطو، وتابعه عليه من الفلاسفة المتأخرين سيغموند فرويد، فهو يرى أنَّ الرؤيا نتاج نشاطنا النفسي الخاص وتحقيق مقنع لرغبة مقموعة أو مكبوتة(١).

فالرؤى والأحلام عند أكثر علماء النفس ناتجةٌ عن عواملَ نفسيةٍ، ووليدة سلسلةٍ من الظواهر النفسية، وتعبيرٌ عن رغبات مكبوتة، وتذكيرٌ بحالات ومشاهد سبق أن مرَّت بنا منذ زمن طويل، وعليه فإنه من المنطقي أن تفسَّر الأحلام على طريقة التحليل النفسي، وذلك بأن يوضع الإنسان في حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التي تسبق النوم، وتماثل حالة التنويم المغناطيسي من حيث توزيع الطاقة النفسية، ثم يأخذ المحلل بدراسة الحلم من خلال هذه المقارنة(٢).

فأكثر علماء النفس يحصرون الرؤيا في النوع الثالث الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث السابق في قوله: «ورؤيا ممَّا يحدِّث الإنسان نفسه».

لكن الواقع المشاهَد يدلُّ على أن للرؤيا مصادر أخرى خارجة عن نفس الإنسان كما أخبر النبي ﷺ، فالرؤيا التنبُّئيّة التي تنبىء الإنسانَ عن بعض ما سيحدث له في المستقبل واقعٌ معروف ومشهود، ولم يستطع فرويد إنكارَها، فقد رأى أن هذه المسألة ليست موضع تفكير، وهو يفضل أن يقال: إن الأحلام تحيطنا علماً بالماضي، أما اعتقاد الأقدمين بأنَّ الأحلام تنبىء بالمستقبل فأمر لا يخلو في رأيه كل الخلوِّ من الصدق(٣).

وقد أكَّد العالم الفرنسي شارل ريشيه من خلال التجارب التي قام بها، بشكل لا يقبل الشك أن كثيراً من الناس يرون في نومهم أحلاماً تنبىء بأمور

---

(١) انظر: المقدمة لكتاب تفسير الأحلام ص ١٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

(٣) المرجع نفسه ص ١٤.

غيبية، وعلَّل ريشيه وغيره من العلماء هذا الأمر بأنَّ الإنسان ليس جسداً فحسب، بل هو روح أكثر منه جسداً[1].

إنَّ الحقيقة لا تعرف كلها بواسطة حواس الإنسان الظاهرة المحدودة، فحواسه وإدراكه تنام معه عندما ينام، كيف يرى الإنسان ويسمع ويدرك مختلف المشاعر من خوف وألم وغضب وسرور وهو نائم!؟.

الرؤيا التنبُّئية

الرؤيا التنبُّئية محور قصة يوسف عليه السلام، ودوافع حوادثها الأساسية، وقد سمَّى الله تعالىٰ هذه الرؤىٰ التنبُّئية بالأحاديث، وتأويلُها علم من العلوم التي أكرم الله تعالىٰ بها يوسف عليه السلام:

﴿ وكذلك يَجْتَبيكَ ربُّك ويعلِّمُكَ من تَأويلِ الأحَاديثِ ﴾ وهو ما تنبَّأ به أبوه يعقوب عليه السلام، وقد تمَّ هذا بالفعل وأخبر الله تعالىٰ أنه أنعم على يوسف بعلم تأويل الأحاديث في الآية التي ستأتي معنا: ﴿ وكذلك مكَّنا ليوسف في الأرض ولنعلمَه من تأويل الأحاديث ﴾.

وكان لهذا العلم الذي علَّمه اللهُ يوسفَ عليه السلام دورٌ كبير في تحريك أحداث القصة كما سيأتي معنا، وشعر عليه السلام بفضل الله عليه بما علَّمه فقال كما سيأتي معنا: ﴿ ربِّ قد آتيتني من الملك وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديث ﴾.

فهو علم وهبي لا يخضع لمقاييس التعليم المادية، ولا يُكتسب، وهو علم أيضاً لا يخطىء إذا صَدَرَ عن الأنبياء عليهم السلام كرؤياهم، فهي دائماً رؤيا صادقة لا تخطىء، لهذا هي جزء من الوحي كما مر معنا.

وكل ذلك يدلُّ على وجود مصادر للحقيقة وراء المصادر المادية التي عرفها الناس وألفوها.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥.

قد يكون للعوامل النفسية تسبباً في الرؤىٰ والأحلام، كما يرىٰ علماء النفس ولكنَّها ليست الأسباب الوحيدة، إذ يتعرض الإنسان في نومه لمؤثّرات متعددة بعضها نابع من نفسه، وبعضها خارج عنه، إما من الله تعالىٰ بواسطة الملك، وإما من الشيطان بنزغه ووساوسه كما مر معنا في الحديث النبوي الشريف.

ولهذه الإلقاءات تأثير علىٰ الإنسان في حال اليقظة أيضاً، ويشعر الإنسان بآثارها بما يجده في نفسه من نوازع تنزع به إلى الخير أو تنزع به إلى الشر.

قال ﷺ: «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وللملك لَمّة، فأما لمةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالىٰ، فليحمد الله، ومن وجد الأخرىٰ فليتعوَّذ بالله من الشيطان»[1].

فالرؤىٰ التنبُّئية واقع مشاهَد لا يمكن إنكاره، وقد أخبر الله في قصة يوسف عن وقوع عدد منها: وهي رؤياه عندما كان صغيراً، ورؤيا صاحبيه في السجن، ورؤيا المَلِك، وكلها رؤىٰ تنبُّئية صادقة، وهي من هذه الناحية أنموذج مصغَّر لظاهرة الوحي، ومثال مقـرِّب لمعناه وحقيقته. ولهذا عـدَّ رسول الله ﷺ الرؤيا التنبُّئية الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما مرَّ معنا، لأنها تشبه الوحي في إلقائها وخفائها، وتشبهه أيضاً بصدقها وموافقتها للحقيقة.

وأما كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فبالنسبة له عليه الصلاة والسلام، إذ ابتُدىء عليه الصلاة والسلام في أول نزول الوحي عليه بالرؤيا الصادقة كما مرَّ معنا في حديث عائشة مدة ستة أشهر، ثم استمر بعد

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه.

ذلك نزول الوحي عليه مدة ثلاثة وعشرين عاماً، فكانت مدة الوحي بالرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من مدة نزول الوحي عليه ﷺ.

والرؤيا التنبُّئية الصالحة بالنسبة للمؤمن بشرىٰ من الله تعالىٰ له في حياته الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتَّقون لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرةِ لا تبديلَ لكلماتِ الله ذلكَ هو الفوزُ العظيم ﴾[1].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالىٰ: ﴿ لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾؟ فقال: «تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرىٰ له»[2].

وتعبير الأنبياء للرؤيا علم أوحىٰ الله تعالىٰ به إليهم، ولهذا فهو علم وهبي لدنّي من الله تعالىٰ لا يُخطىء ولا يُخالف الحقيقة أبداً، وشواهد سورة يوسف تؤكد هذه الحقيقة كما سيأتي معنا، وأما غير الأنبياء الذين يعبِّرون الرؤيا فتعبيرهم يمكن أن يخطىء أو يصيب لأنه نتيجة جهدهم وكسبهم، ومهما بلغوا من الفضل والعلم، وشفافية الروح، وعلو المدارك فلن يصلوا إلى مقام النبوة، لأنه مقامٌ غير مكتسب لا اختيار لهم فيه، بل هو محضُ فضلٍ من الله تعالىٰ.

وأقرب مثال إلى ذلك ما جاء في الحديث الشريف أن رجلاً أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أرىٰ الليلة في المنام ظلَّةً تنطفُ ـ تقطُر ـ السمن والعسل، فأرىٰ الناس يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرىٰ سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل من بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وُصل له فعلا.

---

(١) يونس: الآيات ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، انظر: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت والله لتَدَعَنّي فلأَعْبُرَنَّها، قال رسول الله ﷺ: «اعبرها»، قال أبو بكر: أما الظُّلَّةُ فظُلةُ الإسلام، وأما الذي ينطِفُ من السَّمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به.

فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبْتُ أم أخطأت؟ قال رسول الله ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»[1].

فأبو بكر رضي الله عنه على علمه وفضله يخطىء ويصيب في تعبير الرؤيا لأنه ليس نبياً، فالأنبياء وحدهم يصيبون ولا يخطئون لأنهم يرون الأمور بعين النبوة التي لا تخطىء.

إخوة يوسف ليسوا أنبياء

وتابعت الآيات الكريمة حكايةَ كلمات يعقوب لولده يوسف عليهما السلام: ﴿ ويتمُّ نِعْمَتَه عَلَيْكَ ﴾ بنزول الوحي والنبوة ﴿ وَعَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾: أي وعلى من يصطفيهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب، فكلمة (آل يعقوب) تعمُّ الأنبياء وغيرهم، وقد تفرع من أبناء يعقوب الأسباط ـ القبائل ـ الاثني عشر الذين يكونون اليهود، وقد اختار الله تعالى منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى كثيراً من الأنبياء.

ولا دليل في الآية على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعض المفسرين، فما صدر منهم في حق أبيهم وأخيهم ـ كما سيأتي معنا ـ لا يتفق

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الرؤيا.

مع أخلاق الأنبياء قبل النبوة وبعدها، ولو كان إخوة يوسف هم مراد قوله تعالى: (آل يعقوب) لكان الأظهر والأخصر أن يقول: وعلى إخوتك.

والقول بأنهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سَلَفاً وخلفاً، فلم ينقل عن أحدٍ من الصحابة أنه قال بنبوتهم ولا عن التابعين، لكن وجد بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوتهم كابن زيد والبغوي، وقد بالغ في ردِّه القرطبيُّ وابنُ كثير، وذكر ابنُ تيمية رحمه الله في مؤلَّف له خاص هذه المسألة، وملخصه: الذي يدلُّ عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء، واحتجَّ من قال بأنهم أنبياء بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: (والأسْبَاط) وفسَّر ذلك بأولاد يعقوب، والصوابُ: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال لهم: بنو إسرائيل، ويقال لسائر الناس: بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أمَّةٌ يهدونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلـون. وقطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً. . . ﴾ الآية[1]: صريحٌ في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سِبط أمة، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السِّبط شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد[2].

ولو كانوا أنبياء ما وصَّاهم يعقوب عليه السلام عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد قال تعالى: ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبدُ إلَهك وإلَهَ آبائِك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلَهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾[3].

---

(١) الأعراف: الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.
(٢) انظر: روح المعاني ١٢/١٨٤.
(٣) البقرة: الآية ١٣٣.

﴿ كما أتمَّها على أبَوَيْك من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ ﴾ بإكرامهما بالنبوة ﴿ إنَّ ربَّك عليم ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكيم ﴾ [٦] في أفعاله، فلا يجعل النبوة والرسالة إلا في أكمل الناس خَلقاً وخُلقاً ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته . . . ﴾ الآية[١].

ولا شك أن نبيَّ الله يعقوب عليه السلام كان ينظر إلى المستقبل بعين النبوة والوحي، عندما بشَّر ولده يوسف بكل هذا المستقبل الباهر، فقد كان حينئذ نبياً يوحىٰ إليه، ورؤيا يوسف لا تحمل في تعبيرها كل هذه المبشِّرات التي ذكرها يعقوب، وقد صرَّح عليه السلام بأنَّ حديثه هذا وحيٌ من الله، كما سيأتي معنا بقوله: ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾.

ولو أنه عليه السلام علم أن الله تعالىٰ سيصطفي بقية أولاده ويكرمهم بالنبوة كما يكرم يوسف، لبشَّرهم كما بشَّره، وأخبرهم كما أخبره، مما يؤكِّد أن النبوَّة في أبناء يعقوب كانت ليوسف عليه السلام فقط.

﴿ لقد كان في يوسُفَ وإخوتِه آياتٌ للسَّائلين ﴾ [٧]: أي في قصة يوسف وإخوته عِبرٌ كثيرة، وعظات بليغة، وأدلة قاطعةٌ على أن القرآن كلام الله تعالىٰ، لكل الذين سألوا عن قصتهم، أو للذين يسألون وللذين لا يسألون، لقوةِ دلالة الكلام على المحذوف، كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾: أي والبرد.

فالقصة مليئة بالعبر والمواعظ والحِكم والأحكام، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزَّه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه، ولهذا كرَّر القرآن الكريم دعوة الناس ليتدبروا آياته، ويعرفوا ما فيها من حكم وأحكام وإعجاز، كقوله:

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٤.

﴿ أفلا يتدبَّرون القرآنَ ولو كانَ من عند غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآنَ أم على قلوب أقفالها ﴾[2].

البغاةُ الحَسَدةُ

أول دروس قصة يوسف وعظاتها أنها بيَّنت خطورة الحسد وشدةَ تأثيره على النفوس وما يترتَّب عليه من ارتكاب الجرائم وحدوث الخصام، فقد كشفت الآيات أن نفوس إخوة يوسف انطوت على حَسدٍ كبير لأخيهم، وبيَّنت أن مبعث حَسدِهم أنانيتُهم وطمعهم وحب الاستحواذ والتملك المسيطر عليهم.

وأكثر ما يقع الحسد بين الإخوان والأقارب والجيران والأقران.

وقد وقعت أول جريمة قتلٍ في الأرض بسبب الحسد، قال تعالى: ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق إذ قرَّبا قُرباناً فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر قال لأقتُلنَّك قال: إنما يتقبَّل الله من المتقين ﴾[3].

والعجيب أنَّ الله تبارك وتعالىٰ أمر النبي ﷺ أن يقرأ هذه الآية وما بعدها على خلائف وذرية إخوة يوسف من اليهود الذين كانوا في المدينة المنورة، قال ابن كثير في بداية تفسيرها: اقرأ على هؤلاء البغاةِ الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم[4].

وقد ختم الله تبارك وتعالىٰ هذه القصة بقوله في بني إسرائيل: ﴿ من

---

(١) النساء: الآية ٨٢.

(٢) محمد: الآية ٢٤.

(٣) المائدة: الآية ٢٧.

(٤) انظر: تفصيل القصة في كتاب الحلال والحرام في سورة المائدة.

أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتلَ الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسُلُنا بالبينات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾[1].

وكثيراً ما تظهر صفات الآباء في أبنائهم وأحفادهم، فكأنَّ سورة يوسف تكشف لنا حقيقة ما تنطوي عليه نفوس اليهود من بني إسرائيل سلائل إخوة يوسف، وهذا يفسِّر لنا ما عُرِف عن اليهود من الحسد والبغي والسعي لنشر الفتن والفساد بين الناس، وما عُرِف عنهم أيضاً من عنصرية بغيضة قائمةٍ على شعورهم بالامتياز عن بقية الناس.

التسوية بين الأبناء

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى ما في السورة من عظات وعبر، نقلتنا الآيات مباشرةً إلى إخوة يوسف وكيدهم ومكرِهم به، وبيانِ سبب هذا الكيد والمكر.

﴿ إذْ قالوا ليوسُفُ وأخوهُ أَحَبُّ إلى أبينا منَّا ﴾ فحقدهم على يوسف وأخيه لم يكن مبعثه سوىٰ أن يعقوب عليه السلام كان متعلقاً بولده يوسف وأخيه أكثر من تعلقه ببقية أولاده، وهو أمرٌ طبيعي يوجد عند كثير من الآباء والأمهات، فالأب عادةً يحب ولده الصغير ويعطف عليه أكثر من أولاده الكبار، لأنه يشعر أن الصغير يحتاج إلى عطفه ورعايته أكثر من الكبير، الذي اشتد عوده، وقويت بنيته، وأصبح مستغنياً عن عطف والده ورعايته.

وقد سبق أن تمتّع إخوة يوسف بعطف أبيهم ومحبته عندما كانوا صغاراً، كما يتمتع يوسف وأخوه الآن، فالضعيف موضعُ الشفقة والعطفِ أكثر

---

(١) المائدة: الآية ٣٢.

من القوي، ولما سُئلت إحدىٰ الأمهات: أي بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يشفىٰ.

فلا عذر لإخوة يوسف بحسدهم لأخيهم وانتقادهم لأبيهم، وهو نبيٌّ كريم لم يفعل ما يفعله بعضُ الآباء الجهلة، عندما يفضِّلون ولداً على ولد بالأموال والهدايا، وهو أمرٌ مستنكر وغير مشروع، حذَّر منه النبي ﷺ.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضىٰ حتى تشهدَ رسول الله ﷺ، فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أُشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيتَ سائر ولدك مثلَ هذا؟» قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية قال: «لا أشهد على جَوْر»[1].

فالأب مطالَبٌ أن يعدل بين أولاده بالأمور المادية، فلا ينبغي أن يخصَّ بعضهم بمال أو هدية دون إخوته، فإنَّ هذا يبعثهم على التحاسد والتباغض، ويثيرُ بينهم الخلافَ والشِّقاق، وكم تَسبَّب بعض الآباء في إثارة الخصومات بين أولادهم بسبب سوء تصرفهم هذا.

ولا يطالب الأب أن يسويَ بين أولاده بالأمور العاطفية كالمحبة والشفقة لأنه لا يقدر على ذلك، فلا سلطان للإنسان على قلبه، ولا يستطيع أن يتحكَّم بعواطفه، ونبينا ﷺ لم يستطع أن يسوي بين زوجاته بالمودة والمحبة، مع أنه كان يقسم بينهن بالعدل، ويقول: «اللهم هذه قِسْمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[2]، قال تعالىٰ: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أصحاب السنن.

النساء ولو حَرَصتم فلا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة وإن تُصْلحوا وتتَّقوا فإنَّ الله كان غفوراً رحيماً ﴾[1].

﴿ ونحن عُصْبَةٌ ﴾: أي ونحن جماعة يعصِب بعضنا بعضاً، ويشدُّ بعضنا أزر بعض، أو ونحن جماعة قادرون على خدمته والقيام بحاجاته ومنافعه أكثر من يوسف وأخيه، والعُصبة تُطلق على العشرة، وما زاد عليها.

﴿ إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مبين ﴾ [٨]: أي إنه في محبته لهما أكثر من محبته لنا في خطأ واضح، قالوا ذلك في حق أبيهم وهم يعلمون أنه نبيٌّ كريم، فقد أعماهم الحقدُ والحسدُ عن رعاية حقوق النبوَّة وحقوق الأبوة، وعن وجوب رعايتها.

وتدلُّ الآية على أن يوسف عليه السلام كتمَ عن إخوته أمرَ الرؤيا كما أوصاه أبوه، فما أشاروا إليها في حديثهم هذا فيما بينهم.

المـــؤامـــرة

وبعد انتقادِهم أبيهم، ووصفِهم له بالضلال المبين، شَرَعوا يأتمرون بأخيهم يوسف، ويبحثون عن طريقة يتخلصون بواسطتها منه، وكان قتله أو رميه بمهلكة من الأرض هو رأي أكثرهم ﴿ اقْتُلُوا يوسُفَ أو اطْرَحُوه أرْضاً ﴾: أي أرضاً نائية منقطعةً يهلك فيها ﴿ يَخْلُ لكم وَجْهُ أبيكم ﴾: أي يَصْفُ لكم ويخلُص لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم ويزداد حبُّه لكم، ظنوا أنه عندما يفقد يوسف يخرج حبه من قلبه، وما علموا أنه عندما يفقده سيزداد حباً له وشوقاً إليه، وأنَّ خيال ولده المفقود سيبقى ماثلاً في قلبه، وأنَّ قلبه لن يخلوَ لهم ـ وهو يعلم أنهم سبب إبعاد حبيبه عنه ومفارقته له ـ.

---

(١) النساء: الآية ١٢٩. انظر: تفصيل الموضوع في كتاب السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام.

وقولهم: ﴿ يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم ﴾ يدلُّ على غِلظة نفوسهم وتبلُّد مشاعرهم، فغياب المحبوب يلهبُ الشوقَ ويضاعفُ المحبةَ، وأنَّى لهم أن يستشعروا هذه المعاني؛ وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقد والحسد والضغينة والبغي.

﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ [٩] وهكذا أضمروا التوبة قبل الذنب[١]، والتوبة قبل ارتكاب الجريمة لا تكون توبةً، بل هي تبريرٌ للجريمة وتشجيعٌ على اقترافها، والتوبة الحقيقية لا تكون إلا مع الندم على ارتكاب الجريمة، وما دامَ المجرم غير نادم على اقترافه لجريمته فلا يُعَدُّ تائباً مهما تاب واستغفر، قال ﷺ: «الندم توبة»[٢].

وقد انحدر هذا التبرير للجريمة بالتوبةِ الجاهزة إلى ذريتهم وخلفهم، إذ هي السمةُ البارزة لكثيرٍ من اليهود، حتى وصفَهم الله تعالى بها في قوله الكريم: ﴿ فَخَلَف من بعدهم خَلْفٌ وَرِثوا الكتابَ يأخذونَ عَرَضَ هذا الأدْنى ويقولُونَ سيُغفرُ لنا وإن يأتِهم عَرَضٌ مِثلُهُ يأخذُوهُ ﴾ الآية[٣]. قال ابن كثير في تفسيرها: أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه[٤].

ويبدو أن أحدهم استفظع قتلَ يوسف، فاقترح عليهم مكيدةً أخرىٰ للتخلُّص منه، لا قتل فيها ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتُلوا يوسُفَ وألْقُوه في غَيَابَتِ الجُبِّ ﴾: أي ألقوه في قَعْر الجُبِّ وظلمتها الغائبة عن الأنظار.

والجبُّ: البئر الواسعة، سميت جُبّاً لأنها جُبَّتْ من الأرض، أي قُطعت. وأراد القائل بئراً معينة معروفة لديهم، ولهذا عرَّفها فقال: (الجب) وتقع على طريق القوافل بين بلاد الشام ومصر.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤١.

(٢) رواه الحاكم وصححه، وابن حبان في صحيحه.

(٣) الأعراف: الآية ١٦٩.

(٤) مختصر ابن كثير ٢/٦١.

﴿ يَلْتَقِطْهُ بعضُ السَّيَّارة ﴾: أي يأخذه بعض المسافرين السائرين على الطريق، والالتقاط: أخذ شيء مشرفٍ على الضياع، ومنه اللقيط: الولد الصغير الذي يوجد ملقىٰ على الأرض لا يُعرف أبواه.

وبهذا يصبح الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام لقيطاً في أيدي الغرباء.

﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ [١٠]: أي إن كنتم فاعلين بمشورتي، ويدل قوله هذا على أنه كان مرتاباً في قبولهم لرأيه، بسبب ما يرىٰ من شدّة حقدهم وضغينتهم على يوسف عليه السلام.

ولكنَّ الله تعالىٰ غالب على أمره، قدَّر ليوسف ألا يموت حتى يُبتلىٰ بما ابتلي به، ثم يمكِّنه الله تبارك وتعالىٰ في الأرض، فانصرفوا عن قتله وإلقائه في مهلكةٍ من الأرض، إلى إلقائه في الجبِّ الواقعة على طريق القوافل، واتفقوا على هذا الرأي، ثم ائتمروا فيما بينهم على أسلوب التنفيذ وارتكاب الجريمة.

التنفيذ

وَشَرعوا في تنفيذ الجريمة، وجاءوا أباهم قبل يوم التنفيذ ﴿ قالوا يا أبانا مَا لَكَ لا تأمنَّا على يوسُفَ وإنَّا له لناصحون ﴾ [١١]. وفوجئَ أبوهم بهذا السؤال المغلَّف بالاستنكار والعِتَاب، وادعائهم النصح لأخيهم يوسف، والنُّصح يدل على الإخلاص والأمانة، وكذبوا بهذه الدعوة، فقلوبهم كانت ممتلئةً حِقداً وحسداً على يوسف عليه السلام.

وقبل أن يسمعوا جواب أبيهم على سؤالهم وعتابهم طلبوا منه أن يرسله غداً معهم إلى المراعي والقفار، كأنَّ كلامَهم أمرٌ محقَّق لا شك فيه ولا ارتياب ﴿ أرْسِله معنا غداً يرْتَعْ وَيَلْعَب ﴾: أي ليتمتّع بالخِصب والسَّعَة واللعب، ولا بد أنهم قالوا ذلك بحضور يوسف، الذي فَرِح بهذا الرأي ببراءةِ

الأطفال وضمَّ صوته إلى أصواتهم ليأذَنَ له أبوه ليخرج غداً مع إخوته.

ثمَّ أكَّدوا لأبيهم أنهم سيقومون على حفظه ورعايته ﴿ وإنَّا له لحافظون ﴾ [١٢].

وقابل يعقوب عليه السلام مكرَ أولاده وكيدهم بصدرٍ سليم، ونفسٍ بريئة صافية، فهو نبيٌّ كريم لا يحمل في صدره غِشّاً لأحد فضلاً عن أولاده، وهو أيضاً أبٌ رحيم ممتلىءُ القلب بعاطفةِ الأبوّة الصادقة ولهذا صارح أولادَه بما يحمله في قلبه من المحبةِ الشديدة لولده يوسف وما درىٰ عليه السلام أنه بهذه المصارحة والمكاشَفَةِ قد سعَّر أحقادَ أولادِه على أخيهم، وألهبَ مشاعر الحقد والغضب في نفوسهم، فجعلهم أكثر تصميماً على تنفيذ جريمتهم.

﴿ قال إنَّه لَيَحْزُنُني أنْ تذهَبُوا به ﴾: أي إنَّ ذهابكم به يُدخل عليَّ حزناً، فأنا شديدُ المحبة له، لا صَبْر لي على مفارقته ولو لبعض يوم، وشدَّة المحبة تؤدي إلى مشاعر الخوف والقلقِ على المحبوب.

﴿ وأخافُ أن يأكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ فقد كانت أرضهم كثيرةَ الذئاب، وكان يوسف عليه السلام صغيراً لا يستطيع الامتناع منها بنفسه.

﴿ وأنتُمْ عنه غافلون ﴾ [١٣]: أي وأنتم عنه في حال غفلةٍ وانشغال.

فردُّوا على أبيهم والغيظُ يأكل قلوبَهم ﴿ قالوا لَئِن أكَلَهُ الذِّئْبُ ونحنُ عُصْبَةٌ ﴾: أي جماعةٌ فينا مَنَعَةٌ وقوة ﴿ إنا إذاً لخاسرون ﴾ [١٤]: أي إنا لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنّه لا نفع في حياتنا، فإذا ما ضيَّعنا أخانا وأكَلَه الذئب فنحن لما سواه أشد تضييعاً.

وأيُّ أب يكون في مثل موقف يعقوب عليه السلام، لا بد أن يستجيب لطلب أولاده، فرفضه لطلبهم معناه أنه لا يثق بهم، وأنه لا يأتمنهم على أخيهم، فأذِن لهم وذهبوا بيوسف معهم.

﴿ فلما ذَهَبوا به وأجْمَعُوا أن يَجْعَلوهُ في غَيَابَت الجبِّ ﴾: أي اتفقوا

كلهم على إلقائه في ظلمة الجب، وحكىٰ الله تعالىٰ إجماعهم على جريمتهم هذه، لأنها جريمة فظيعة منكرة، فكلهم اشتركوا بها وتحملوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادع ولا مانع، فلم يهتز ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة، وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغ البصر يستثير شفقتَهم بصراخه ودموعه، فلا يتحرك قلب واحد منهم، ولا يهتز ضميره ووجدانه.

ولا بد أنَّ يوسف عليه السلام قد فوجىء بعد ابتعادهم عن أبيهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأة في عيونهم التي تنظر إليه شَذْراً وتقدح في وجهه ناراً، وفي أيديهم التي انهالت عليه ضرباً ولَكْماً.

ألا ما أقسىٰ قلوبهم التي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعِه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثم وهم يشتركون كلهم في إلقائه في ظلمة قَعْر الجب!!.

ولقد سَرَت هذه القسوة من قلوبهم إلى قلوب أبنائهم وأحفادهم وأنسالهم، حتى وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ثم قسَت قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار وإنَّ منها لما يشَّقَّق فيخرجُ منه الماء وإنَّ منها لما يهبط من خشيةِ الله وما اللهُ بغافل عما تعملون﴾[1].

ولا عجب بعد هذا في كل ما قيل ويقال عن جرائم اليهود التي ارتكبوها ولا يزالون يرتكبون أمثالها في فلسطين[1].

في قَعْر الجب

وأدركت رحمة الله الغلامَ الصغير وهو في قعر الجب وظلمته، يتحسس

---

(١) البقرة: الآية ٧٣.

(٢) إذا أردت أن تعرف شدة قسوة قلوب اليهود، اقرأ كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود.

موطئاً لقدميه وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعش من برودة الماء ويرتجف من هول الجريمة التي فاجأته على غير توقع وانتظار.

خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يلقىٰ في قعر مظلمة، وينقل من حِجْر والده وعطفه وحنانه إلى وحشة الجب وظلمتها وعفونتها ورطوبتها.

وتداركه الله برحمته ولطفه ﴿ وأَوْحَيْنا إليه ﴾ بوحي الإلهام أو بوحي الإنباء، الله سبحانه أعلم، المهم أنه سبحانه وتعالىٰ تداركه برحمته ولطفه بما سكَّن نفسَه المضطربة، وأزال وحشته وخوفه، فشعر أن الله تعالىٰ معه يرعاه ويرحمه ويلطف به، وأنه سينجيه من محنته، ويظهره أيضاً على إخوته، حتى يأتي الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم هذه ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِم هذا وهم لا يَشْعُرون ﴾ [١٥] أنك يوسف لعلوِّ سلطانك وقوةِ شأنك حينئذ.

أو وهم لا يشعرون أنَّ الله تعالىٰ آنسه وهو في قَعْر الجبِّ وظلمتها، فأزال وحشته ونفّسَ كربته بما أوحىٰ إليه، فتحوَّل قعر الجب المظلمة الموحش إلى أُنس ونور، ولا يتخلىٰ سبحانه عن أصفيائه وأوليائه أبداً يمدهم ويرعاهم ويكلؤهم برحمته وعنايته وهم في ذِرْوة معاناتهم، فعندما كان رسول الله ﷺ في غار ثور والمشركون محدقون بالغار من كل جانب والسيوف بأيديهم مُشْرَعة، وقلوبهم ممتلئة بالحقد والغضب، وأبو بكر رضي الله عنه يذرف الدمع بصمت وهو في داخل الغار مع رسول الله ﷺ خوفاً عليه، أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿ إلَّا تنصروه فقد نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخرَجهُ الذينَ كفروا ثاني اثنين إذْ هُمَا في الغار إذ يقولُ لصاحبه لا تَحْزَن إنَّ الله معنا فأنزل الله سكينَتَهُ عليه وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوْها وجعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السفلىٰ وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1].

---

(١) التوبة: الآية ٤٠.

وعندما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة ونظر إليها نظرة المودع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبِّتاً ومبشّراً له بالعودة إليها: ﴿ إنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآنَ لرادُّك إلى مَعَادٍ قل ربِّي أعلمُ مَن جاءَ بالهُدَىٰ ومن هو في ضلالٍ مبين ﴾[1].

ولما خافت أم موسىٰ على وليدها من الذبّاحين، وأوحىٰ الله إليها أن تلقِيَه باليمّ، وهو أمرٌ كبير وخطير على كل أم في مثل موقف أم موسىٰ، ثبَّتها الله سبحانه وسكَّن قلبها وأزال حزنَها ﴿ وأوْحَينا إلى أمِّ موسىٰ أن أرْضِعيه فإذا خِفْتِ عليه فألْقِيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[2].

التزوير والكذب

وانتظر إخوة يوسف بعد ارتكاب جريمتهم حلولَ الظلام ليستتروا به، فإنَّ ملامح وجوه المجرمين تكاد تفضحهم ﴿ وجاؤوا أباهم عِشَاءً يبكون ﴾ [١٦]: أي يتكلَّفون إظهار الجَزَع والأسف على يوسف، وهم يبكون، وفي ذلك درسٌ للحكام والقضاة، فلا ينبغي لهم أن يتأثروا بالمظاهر التي يفتعلها بعض المتخاصمين، أخرج ابن المنذر عن الشَّعبي قال: جاءت امرأةٌ إلى شُريح القاضي تخاصم في شيء، فجعلت تبكي، فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف عشاء يبكون[3].

﴿ قَالوا يَا أَبَانا إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ في العدو على الأقدام، أو في أعمالٍ توزعناها من سَقي ورعي واحتطاب وصَيْد، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عند متاعنا ﴾ الذي يتمتَّع به الإنسان كالثياب والطعام ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ بعد ابتعادنا عنه

---

(١) القصص: الآية ٨٥.
(٢) القصص: الآية ٧.
(٣) روح المعاني ١٢/١٩٩.

مباشرة، فكأنَّه كان ينتظر ذهابَهم ويراقبُ حركاتِهم، فهو ذئب ذكيٌّ أريب.

وكانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أن أباهم لن يصدقهم، فَكَذِبُهم واضحٌ مكشوف لكل عاقل، بَلْه نبي الله يعقوب عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا أَنْتَ بمؤمنٍ لنا ولو كنَّا صادقين ﴾ [١٧]: أي ما أنت بمصدِّق لنا فيما قلنا ولو كنا في حقيقة الأمر صادقين.

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سَبْك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولىٰ[1].

﴿ وجاؤوا على قميصه ﴾: أي قميص يوسف الذي نَزَعوه عنه قبل أن يُلقوه في الجُب ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾: أي هو الكذب بعينه.

وللقميص دورٌ كبير في قصة يوسُفَ عليه السلام، كما سيأتي معنا، ويبدو أنَّهم غفلوا عن تمزيق القميص، إذ لم تصفه الآية إلا بأنه قميص مُلَطَّخ بدم كذِب، مما دلَّ على كذبِهم، فلا يُعقل أن ينزعَ الذئبُ قميصَ يوسف قبل أن يأكله، إنه إذاً لذئب ذو أناةٍ وحِلم!

ولو كان إخوة يوسف في عصرنا الحاضر ما فعلوا ذلك، فوسائل التحليل المخبري تكشف كذبهم وتفضح زورَهم، وقد أحرز الإنسان في هذا المضمار تقدُّماً علمياً كبيراً، حتى أصبح الكشف عن الجريمة ودوافعها أمراً ميسوراً مهما أوتي المجرم من أسباب الاحتيال والتزوير.

وحيلة إخوة يوسف هذه لا يصدِّقها أيُّ إنسان، ومن الطبيعي ألا يصدِّقُها نبي الله يعقوب الذي ينظر بعين النبوة التي تصيب ولا تخطىء وبإحساس الوالد الرحيم الشفيق ﴿ قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً ﴾: أي زيَّنت وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً منكراً قبيحاً.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٩٧٥.

الصبر الجميل

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾: أي فشأني وحالي صبرٌ لا جزعَ فيه ولا شكوى فيه للخلق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائِه ﴿ واللهُ المستعانُ على ما تصفون ﴾ [١٨]: أي أسأله تعالى المعونةَ في كشف الحقيقة، وإظهار تزويركم وكذبكم.

ويبدو أنَّ الله تعالىٰ خصَّ هذه الأمة المسلمة بقول: ﴿ إنَّا لله وإنا إليه راجعون ﴾ التي أنزلها في قوله الكريم: ﴿ الذينَ إذا أصابَتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾[١].

فلو كان يعقوب عليه السلام يعلم هذه الكلمة لقالَها عندما فقد ولدَه يوسف وواجه هذه المصيبةَ الكبيرة.

هكذا استقبل عليه السلام مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده واحتيالهم وكذبهم وحقدهم على أخيهم وحسدهم له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم، وما كان عليه السلام يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى.

استعان بالله تعالى وحده، ولم يطلب معونةَ أولاده؛ لأنه يعلم أنهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعين بهم، ولم يقم عليه السلام يبحث بنفسه عن ولده ويتفحَّصُ عنه لمعرفته بشدة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغ في الطلب والبحث عنه أن يُقدموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبرِ الجميل، وتفويضِ الأمر بالكلية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إنه عليه السلام كان عالماً بأنَّ ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتاب أجله[٢].

---

(١) البقرة: الآيتان ١٥٦ و١٥٧.

(٢) انظر: روح المعاني ٢٠٢/١٢.

وتركت الآيات الكريمة يعقوب عليه السلام، وقد طوىٰ جوانحه على آلامه وأحزانه، وانتقلت إلى يوسف عليه السلام في قَعْر الجب تقصُّ أخباره وتحكي أحواله ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾: أي جَمَاعةٌ منن المسافرين ﴿ فأرسلوا وَارِدَهم ﴾ إلى الجبِّ ليستقيَ منها الماء ﴿ فأدْلَى دَلْوَهُ ﴾: أي أرسل دَلْوَه إلى ماء الجب، فرأى يوسُفَ عليه السلام فيها سُلَّم النجاة وسبيلَ الصعود من قاع الجب، فتعلَّق بها، وفوجِىءَ الواردُ بيوسف يخرج متشبِّثاً بدلو الماء، فصاحَ مستبْشِراً: ﴿ قال يا بُشْرى هذا غلام ﴾: أي يا بشرى أقبلي هذا أوانك، نزَّل البشرى منزلة شخص يُنَادى، ممَّا يدل على شدّة وقع المفاجأة على نفسه عندما رأىٰ يوسف.

استعبـاد الحــر

﴿ وَأَسَرُّوه بضاعةً ﴾: أي أخفوا أمر وجوده في البئر وجعلوه بضاعةً للتجارة، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناءَ التحقيق في أمره ومعرفة حقيقته.

﴿ والله عليمٌ بما يعملون ﴾ [١٩] ولا يخفىٰ ما فيها من تهديد ووعيد لأولئك الذين استعبدوا يوسف عليه السلام، وهو حر كريم.

واستعباد الحرِّ واسترقاقُه من كبائر الذنوب في الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته، رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حراً فأكلَ ثمنه، ورجل استأجَر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[1].

فالإسلام دينُ الحرية، فهو يسعى في تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ولهذا شجع على تحرير الأرقّاء وجعل ذلك عبادةً من أفضل العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فلا اقْتَحَم العَقَبَةَ. وما أدْرَاك ما العقبةُ. فكُّ رقبةٍ ﴾[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) البلد: الآيات ١١ ـ ١٣.

وشرع الإسلام صرفَ مال الزكاة في فكِّ الرقاب من أسْرِ العبودية ورقّها، قال تعالى: ﴿ إنَّما الصَّدَقَاتُ للفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهُم وفي الرِّقابِ والغَارِمِينَ وفي سبيلِ الله وابنِ السبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم ﴾[1].

كما جعل تحرير الرقبة كفارةً لكثير من الذنوب والآثام كالقتل خطأً، والإفطار في رمضان بغير عذر، وعدم الوفاء باليمين المنعقدة... وغيرها.

ولم يكتف الإسلام بذلك، بل ضيَّق مصادر الاسترقاق المشروع وجعلها قاصرةً على استرقاق الأسرىٰ في الجهاد إذا رأى وليُّ أمر المسلمين مصلحةً في استرقاقهم وأذن فيه، فلا يجوز استرقاق الأسرى إلا بهذا الشرط، وبذلك أغلق الإسلامُ المصادَر الكبيرةَ التي كانت للرق، وفوَّض ولي الأمر بإغلاق المصدر الوحيد الذي أقرَّه الإسلام إذا وجد المصلحةَ في ذلك؛ ولهذا لما تنادت الدول في نهاية القرن الميلادي الماضي إلى تحريم الرق ومنعه وافق السلطان العثماني وليُّ أمر المسلمين في ذلك الوقت على منعه وتحريمه، وأصدَرَ أمراً بمنع استرقاق الأسرى، وبهذا أغلق هذا المصدر الوحيد في نظر الإسلام لاسترقاق الإنسان.

باعوا النبي عليه السلام

وهكذا أصبح الكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ابنِ الكريم يوسف عليه السلام عبداً مُسْتَرَقّاً، وحمل بضاعة إلى سوق الرقيق في مصر وعُرِض كأيّ سِلْعَةٍ للبيع ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾: أي باعه مسترقّوه بثمنٍ قليل ﴿ دراهِمَ معدودةٍ ﴾ ولو كان الثمنُ كثيراً لكان دراهم موزونةٍ لا معدودة ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [٢٠]: أي كانوا غيرَ حريصين عليه وراغبين فيه، لأنهم التقطوه التقاطاً، والملتقط للشيء متهاونٌ به، ولهذا باعوه بثمن قليل بَخْس.

---

(١) التوبة: الآية ٦٠.

ورأى بعض المفسرين أن إخوة يوسف هم الذين استرقوا أخاهم، وهم الذين تولَّوا بيعه لرجال القافلة، وذلك أنهم كانوا يرصدون الجب، ولما رأوا الوارد يستخرجه منها جاءوا إليهم وزعموا أنه عبدٌ آبق لهم، وسكت يوسف خوفاً منهم، ثم باعوه للسيَّارة بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين.

ولا يخفىٰ ما في هذا الرأي من التكلف وتشتيت الضمائر، والمعروف أن المجرم يبتعدُ عن مكان الجريمة كي لا تحوط به الشكوك.

وظلَّت عين الله تعالىٰ ترعىٰ يوسف وتكلؤه في جميع تقلباته ومراحل حياته، وقدَّرَ سبحانه أن يشتري يوسف رجلٌ تفرَّس في وجهه الخير والنُّبْل وكرمَ المَحْتِد، كان هذا الرجل عزيز مصر كما صرَّحت الآيات بعد ذلك، ومن رحمته تعالىٰ بيوسف أن جعله بضاعةً كاسدةً في نظر طالبي الشراء، إلى أن حضر عزيز مصر بقدرة الله ومشيئته، وألقىٰ الله تعالىٰ محبة يوسف في قلبه والرغبة في شرائه، فاشتراه وأخذه إلى بيته معزَّزاً مكرماً، وأوصىٰ زوجته به.

﴿ وقال الذي اشتراه مِن مِصْرَ لامرأتِهِ أكْرِمي مَثْواهُ ﴾ أي: اجعلي محل ثُوائِه وإقامتِه حسناً مرضياً، وهذا كناية عن إكرامه عليه السلام نفسه على أبلغ وجه وأتمه[1]، ولا شك أن إكرام مثواه إكرام لنفس يوسف عليه السلام.

﴿ عَسَىٰ أن يَنْفَعَنَا ﴾ في قضاء مصالحنا ﴿ أو نَتَّخِذَه وَلَداً ﴾: أي نَتَبنَّاه ونجعله ولداً لنا، ويبدو أن عزيز مصر كان لا يولد له وكان التبنّي واستلحاق إنسان بنسب إنسان آخر أمراً شائعاً في المجتمعات القديمة، وعند العرب قبل الإسلام، حتى إن النبي ﷺ تبنَّى زيد بن حارثة، وألحقه بنسبه الشريف قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام، فكان يُدعى: زيد بن محمد، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ على النبي ﷺ تحريمَ ذلك بقوله الكريم: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ في جوفِه، وما جَعَل أزواجَكم اللائي تظاهرون منهنّ أمَّهَاتِكم وما جعلَ

(١) روح المعاني ١٢/٢٠٧.

أدعياءَكم أبناءَكم ذَلِكُم قولُكُم بأفواهِكُم واللهُ يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائِهم هو أقْسَطُ عند الله فإنْ لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم في الدين ومواليكم وليسَ عليكم جُنَاحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَّدت قلوبُكم وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾[1].

فرجع ﷺ عن ذلك وحرَّم أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه وقال: «ليس من رجل ادعىٰ إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»[2].

وقد جرت العادة أن يهانَ الرقيق ولا يُكرم، ولكنَّ الله تعالىٰ هَيَّأ ليوسف عليه السلام أن يعيشَ مُكرَّماً ومعزَّزاً في أرفع بيوت مصر وأعلاها مما يدلُّ على عنايته تعالىٰ ورعايته له في محنته وغربته ورقِّه وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿ وكذلك مكَّنا ليوسُفَ في الأرض ﴾: أي جَعلنا له مكاناً كريماً في أرض مصر حتى أمر عزيز مصر، وهو الرجل الثاني في الحكم والسلطان، امرأته دون سائر حاشيته بالعناية بيوسف وإكرام مثواه وإقامته.

والله غالب على أمره

فعاش عليه السلام في قصر عزيز مصر معزَّزاً مُكَرَّماً، ونما وشَبَّ أحسن شباب وأجمَلَه وأكْمله، وجَمَعَ الله تعالىٰ له جَمَالَ الخَلْقِ وجمال الخُلُقِ، وعلَّمه سبحانه في هذه الفترة من حياته علوماً كثيرةً، منها علم تعبير الرؤيا ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديث ﴾ وقد علَّمه الله تعالىٰ هذا العلم من غير واسطة كما هو ظاهر من لفظ الآية ومن قوله الذي سيأتي أيضاً: ﴿ ذلك مِمَّا علَّمني ربي ﴾.

﴿ واللهُ غَالِبٌ على أمره ﴾ فلا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء وهو

---

(١) الأحزاب: الآيتان ٤ ـ ٥.

(٢) متفق عليه.

القائل: ﴿ إنَّما أمرُه إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون ﴾[1].

أو: والله متولٍ على أمر يوسف لا يكلـه إلى غيره[2].

وقد أرادوا هلاكه وأراد الله تعالىٰ سلامته ونجاتَه، فكـان ما أراده سبحانه، فلا رادَّ لقضائه ولا غالبَ لمشيئته جلَّ جلاله.

﴿ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون ﴾ [٢١]: أي لا يعلمون أنَّ الأمر كله لله تعالىٰ وحده.

﴿ ولما بَلَغَ أَشُدَّه ﴾: أي بَلَغَ الغايةَ في اشتدادِ جسمِهِ وقوته، ويكون هذا عادةً ما بين الثلاثين إلى الأربعين من عُمر الإنسان، قـال تعالىٰ: ﴿ ووصينا الإنسانَ بوالديه إحساناً حَمَلَتْه أمُّه كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُه وفِصَاله ثلاثونَ شهراً حتى إذا بَلَغ أشُدَّه وبَلَغ أربعينَ سنةً قال ربِّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صَالحاً ترضاه وأصْلِحْ لي في ذريَّتي إنِّي تُبْتُ إليك وإنِّي من المسلمين ﴾[3].

﴿ آتيناه حُكْماً وعِلْماً ﴾: أي آتيناه علمَ النبوّة وحكمتها، أو آتيناه حكمة في أقواله وأفعاله، وعلَّمناه علوماً كثيرة، كما أشرنا سابقاً، ولعلـه الأرجح لأن الله تعالىٰ قال عن موسىٰ عليه السلام: ﴿ ولما بَلَغ أشُدّه واستوىٰ آتيناهُ حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾[4]. وما كان حينئذ نبياً، فما نبأه سبحانه حتى عاد من مَدْيَن إلى مصر، إذ أوحىٰ إليه وهو في طريق عودته.

﴿ وكذلك نَجْزي المحسنين ﴾ [٢٢] الذين بَلغوا مَرتبة الإحسان في

---

(١) يّس: الآية ٨٢.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٦٣.

(٣) الأحقـاف: الآية ١٥.

(٤) القصص: الآية ١٤.

طاعته تعالىٰ وعبادته، وهي المرتبة التي قال فيها ﷺ: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

قال تعالىٰ: ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[2].

تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء

ثم أخبر سبحانه كيف كان يوسف عليه السلام محسناً في طاعته وعبادته ووقَّافاً عند حدودهِ المشروعة في أحْرج الساعات وأخطرها وأكثرها فتنة وابتلاءً.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هو في بيتها عن نفْسِه ﴾ لقد أُعجبت سيدة البيت زوجة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته وكمال رجولته، فَفُتِنَت به، وأحبّته وعشِقَته، وشجَّعها على ذلك كونه عليه السلام يعيشُ قريباً منها في قصرها، فهو في بيتها يغدو ويروح أمام ناظريها، وهو في ريعان شبابه، وقد حَبَاه الله تعالىٰ نَضْرةً وجمالاً وبهاءً، لا نظيرَ له في زمانه، حتى وصفه ﷺ عندما رآه ليلة الإسراء والمعراج بقوله: «. . . فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شَطْر الحسن»[3].

ولا شك أنَّ دخول الرجل على المرأة واختلاطَه بها من أكبر أسباب الافتتان التي تؤدّي إلى الفواحش والزنىٰ ولهذا حرَّم الإسلام اختلاطَ الرجلِ بالمرأة، وخلوتَه بها، قال ﷺ: «لا يخلونَّ أحدُكم بامرأةٍ إلا مع ذي رَحِمٍ محرم»[4].

وحذَّر ﷺ من دخولِ الرجال على النساء فقال: «إيَّاكم والدخول على

---

(١) انظر الحديث كاملاً في الصحيحين.

(٢) الرحمن: الآية ٦٠.

(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم.

(٤) متفق عليه.

النساء»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: «الحموُ الموت»[1]، والحمو: القريب من جهة الزوج، وأراد ﷺ في قوله هذا أن يبيِّن أن شأن القريب إذا دخل على المرأة أخطر من غيره، لأنَّ النساء عادةً يتساهلن في الاحتجاب والتستر عن الأقارب، ولأنه يدخل دون أن يخشى إنكار الناس عليه.

وقد شرط تعالىٰ في الخادم الذي يدخل على النساء لخدمتهن، أن يكون طفلاً لا يعرف شيئاً عن أمور العلاقات الجنسية مع النساء، أو كبيراً لا شهوةَ له نحو النساء، فقال: ﴿ أو التابعينَ غَيرِ أولي الإرْبة من الرجال أو الطفلِ الذين لم يظهروا على عوراتِ النساء ﴾ الآية[2].

وأمر سبحانه أيضاً الرجال والنساء جميعاً أن يغضُّوا أبصارَهم عن النظر إلى العورات والمحرَّمات، وأن يحفظوا عوراتهم بسترها. والبعد عن الفواحش والآثام، فقال جلَّ وعلا: ﴿ قُلْ للمؤمنينَ يغضُّوا من أبْصَارهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أزكىٰ لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون ﴾[3].

المعركة

وعندما تُفْتَن امرأةٌ برجل وتشتهيه تدنو منه بلطف، وهي تعرض عليه حسنَها وجمالَها وتغريه بنفسِها؛ ليكونَ هو المفتونَ بها والطالبَ لها.

ولا بد أن تكون امرأةُ العزيز قد فعلت ذلك، وحاولت أن تلفت نظر يوسف إلى جمالها ومواضعِ الفتنة في جسدها.

والفرص المواتية لغرضها هذا كثيرة وكبيرة، فقد كانا يعيشان في بيت

---

(١) متفق عليه.
(٢) النور: الآية ٣١.
(٣) النور: الآية ٣٠.

واحد وتحت سقفٍ واحد، وهي السيدة الآمرة في البيت، مما يدلُّ على طول المحنة التي مرَّ بها يوسف عليه السلام.

ومدلول كلمة (وَرَاوَدَتْهُ) يدل على طول المحنة وشدّتها، إذ معناها دارت عليه بالحيل، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى: راد يرود، إذا جاء وذهب، فقد دارت عليه بكل حيلة، ونصبت له أشْراك الخِداع، ويلزم منه القصد والإتيان والإقبال والإدبار والرفق والمهلة وإعمال الحيلة[1].

ولا بد أن يكون عليه السلام قد عَرَف قصدها وفَهم مرادَها، فالأنبياء عليهم السلام أذكىٰ الناس وأكثرهم فِطنة ونباهةً، فكان عليه السلام يسعىٰ ما استطاع أن يغضَّ بصره عنها ويتجاهل نظراتِها وحركاتِها، ويسعىٰ أيضاً أن يبقىٰ بعيداً عنها.

ولكنَّ مشكلته عليه السلام أنه كان يعيش في قصرها وتحت سلطانها وأمرها، وهو المعنىٰ البارز من قوله تعالىٰ: ﴿ التي هو في بيتها ﴾ فيوسف عليه السلام مضطرٌّ أن يكون في بيتها، وأن يكون أحياناً موجوداً في مخدعها المخصَّصِ لها وحدها، والذي تنام فيه مع زوجها، وهذا يبيِّن لنا مدى المعاناةِ النفسيةِ الشديدةِ التي كان عليه السلام يعاني منها، والإحراجِ الشديد الذي كان يشعر به وهو يواجه تبرجَها وتهتكها.

والأنبياء عليهم السلام أطهر الناس نفوساً وأنقاهم قلوباً وأكثرهم حياءً.

ومرَّت أيام، ولعلها شهور وأعوام، على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين الطُّهر والعفاف، والحياء المتسلح بسلاح الإيمان بالله تعالىٰ من جهة، وبين الشهوة المسعورةِ المتسلحة بسلاح الفتنة والإغراء والتمكن والسلطان من جهة أخرى.

وكلما ازداد عليه السلام إعراضاً وإباءً ازدادت إقبالاً عليه وشغفاً به، وازدادت تهتكاً وإغراءً.

(١) انظر: نظم الدرر ١٠/٥٦.

وأخيراً فاض بها الكيل، وبَلَغَ السيلُ الزبىٰ وانتقلت من التلميح إلى التصريح، وقذفت إلى ميدان المعركة كـل ما تملك من أسبـابِ الفتنة والإغراء، وأسبابِ التمكن والسُّلطان، أمرته بالحضور إلى مخدعها، وضربت عليه الحِصار، وطوَّقته بكل ما عند المرأة الأنثى الغنية المتْرفة من أطواق الإغراء والفتنة، ومن وراء كل ذلك طوَّقته أيضاً بطَوْق الحصار المادي عندما غلَّقت الأبواب:

﴿وغلَّقت الأَبْوَابَ﴾ أحكمت إغلاقَ الأبوابِ، كل الأبواب، وهذا يدل على أن ميدان المعركة كان وراء عدة أبواب مغلقة.

﴿ وقالت هَيْتَ لك ﴾: أي تَهيَّأتُ لك وتزيَّنْت لك، فكل ما ترى أمامك لك وحدك، فتعال إلى الاتصال وهلمَّ إلى الوصال.

الانـتـصـــار

واحتدم الصِّراع ووصلت المعركة إلى لحظات الحسم، فَحَسمها عليه السلام بكلمةٍ ﴿ قال معاذَ الله ﴾ وانتصر نبيُّ الله يوسف، انتصرت العِفَّة والبراءة والطُّهر على الرذيلة والدناءة والسفاهة، لقد عاذَ نبيُّ الله بمعـاذ فانتصر، عزَّ من اعتز بالله، وانتصرَ من استنصر بالله.

﴿ إنَّه ربي أحسنَ مثـواي ﴾ كيف أعصي ربي الذي أحسنَ مثواي؟! أكرمني ورحمني وكان معي في كل محنة ومنَّ عليَّ بكل نعمة، وكأني بيوسف عليه السلام كانَ في تلك اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، تذكَّر حالَه عندما ألقاه إخوته في الجب، وكيف أدركته رحمة الله تعالى فآنسته وبشَّرته وهو في ظلمة قعر الجب ووحشته ﴿ وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ وتذكَّر حاله وهو في سوق العبيد معروضاً للبيع بأيدي النخاسين، والزبائن يطوفون به يتأملونه ويقلبونه كما يقلب المتاع ثم يعرضون عنه زاهدين به، حجبهم الله تعالى بقدرته ومشيئته عن رؤية ملامح

الجمال والبهاء في مُحَيَّاه، جعله الله تعالىٰ بضاعة كاسدة في نظرهم حتىٰ جاء عزيز مصر إلى السوق، فتفرَّس فيه معاني النبل والطهر، وألقىٰ الله تعالىٰ محبته في قلبه، وأخذه إلى بيته معزَّزاً مكرماً، وأوصىٰ به زوجته قائلاً: ﴿ أكْرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً ﴾.

ولهذا رأىٰ كثيرٌ من المفسِّرين أن يوسف عليه السلام أراد بقوله: (إنه ربي) عزيز مصر، لأنه كان سيده ومالكه في نظر الناس، وقد أحسنَ إليه وأكرمه، وأكرم مثواه، وأوصىٰ زوجته به، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه وخيانته.

وفي كلمات يوسف عليه لسلام تعريض كبيرٌ بامرأة العزيز، فهي زوجته وعليها أن تحافظَ على عرضِهِ وشرفه، وهذا من أوجب واجبات المرأة نحو زوجها، قال تعالى: ﴿ فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ الله ﴾ الآية[1].

﴿ إنَّـه لا يفلحُ الظالمـون ﴾ [٢٣] الذين يضعـونَ الشيءَ في غير موضعه، فإذا وضعت الخيانةَ في موضع الأمانة كنتَ ظالماً، ولا فلاح للظالم ولا نجاح.

وجاءت كلمات يوسف عليه السلام بغاية التناسق والحسن، ذكر أولاً حقَّ الله تعالىٰ ووجوب رعايته، ثم ذكر حقَّ الرجل الذي أحسن إليه وقبح خيانته، ثم ذكر حق نفسه، وأنَّ عليه أن يحفظها ويصونَها عما يشينها ويؤذيها، فهذه اللذة القليلة يتبعها ضررٌ كبير في الدنيا وعذابٌ شديد في الآخرة، وبهذا يكون ظالماً لنفسه، ولا فلاح للظالمين[2].

---

(١) النساء: الآية ٣٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١٨/١١٧.

إثبات ونفي

بيَّنت لنا الآيات الكريمة أكثر من مرة أنَّ الله تعالىٰ كان مع عبده ونبيه يوسف عليه السلام في كل محنة مرَّ بها، وأنه سبحانه غالبٌ على أمره يكلؤه ويرعاه، وها هي الآيات تبيّن لنا هنا معونتَه تعالىٰ ليوسف وتثبيتَه له، وهو يواجه امرأة العزيز في معركة من أخطر المعارك، وفي محنةٍ من أكبر المحن التي مرَّت به في حياته.

﴿ ولقد همَّتْ بِهِ وهمَّ بها لَوْلَا أنْ رأى برهانَ ربِّه ﴾ أثبتت الآيةُ هَمَّ امرأة العزيز وقصدَها الفاحشة وعزمَها عليها، ونفت همَّ يوسف عليه السلام، فما همَّ بالفاحشة ولا قصد إليها ولا عَزَم عليها.

فقالت تؤكد همَّ امرأةِ العزيز وعزمَها على الفاحشة ﴿ ولقد همَّت به ﴾ أكَّدته باللام الموطِّئة للقسم، وبـ (قَدْ) الدالة على التحقيق والتوكيد.

وعندما تحدثت الآية عن يوسف نَفت همَّه ﴿ وهمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربه ﴾ فلم يهمَّ بها عليه السلام، ولم يقع منه أيُّ قصدٍ للفاحشة والمعصية؛ لأنه رأىٰ برهان ربه، كان عليه السلام حاضرَ القلب والنفس مع الله تعالى، كان في مرتبة الإحسان التي أشرنا إليها سابقاً عند قوله تعالىٰ: ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ والتي وصفها سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالآية بيَّنَت فضله سبحانه على يوسف وتثبيته له في محنته، فلولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، و(لولا) حرف يدل على امتناع شيء لوجودِ غيره، وهمُّ يوسف لم يقع ولم يوجد لوجود برهان الله تعالى، وجواب (لولا) هنا مقدَّم، أو مقدر محذوف دل عليه ما قبلها، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلاناً خلَّصك، وما زعمه بعض علماء اللغة من أن تقدم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح، غير صحيح، فالقرآن

الكريم هو أفصح كلام عربي، كما مر معنا في أول السورة: ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ فهو الكلام الذي يحتج به على غيره، ولا يحتج بغيره عليه أبداً.

وقد تكرَّر مثل هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إن كادت لتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾[1] فلولا تثبيت الله لأمِّ موسىٰ وربطِه على قلبها، كادت أن تكشف أمرَ موسىٰ، وكذلك هنا لولا تثبيت الله تعالى ليوسف لهمَّ بها، فالأمرُ خطيرٌ والمحنةُ شديدةٌ، وعنايةُ الله تعالىٰ ورعايته كانت مع يوسف عليه السلام تثبِّتُه وتحفظه، فما همَّ وما عزم وما قصد.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿ إن كاد ليُضِلُّنا عن آلهتِنا لَولاَ أن صَبَرنا عليها ﴾ الآية[2].

والهمُّ والعزم من أعمال القلب، وقلبُ يوسف عليه السلام كان ممتلئاً بذكر الله تعالى، فلا يجتمع فيه النقيضان، دلّ عليه ما حكاه سبحانه عنه فيما سبق: ﴿ قال معاذ الله ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[3] فلا يجتمع الخوفُ من الله والتصديق به، مع العزمِ على الفاحشة والمعصيةِ في وقتٍ واحد وقلب واحد.

وإني لأعجب من الروايات الشاذّة المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين والتي ذكرها بعض المفسرين، فهي واضحةُ البطلان ظاهرةُ الفساد، بعضها يقول: جَلَس يوسف منها مجلس الرجل من المرأة، وبعضها شَطَح بخياله إلى شيء من التفصيل فقال: استلقت له وجلس بين رِجْليها ينزع ثيابَه ويحل التُّكة ـ رباط السروال ـ، كأنَّهم كانوا حاضرين معهما، وغفلوا عن

(١) القصص: الآية ١٠.
(٢) الفرقان: الآية ٤٢.
(٣) انظر الحديث كاملاً في الصحيحين.

الكلمة المدوّية الصريحة المعلِنَة التي هَتَف بها لسان يوسفَ عليه السلام وقلبُه (مَعَاذَ الله).

ولقد كان العلامة الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره خير من دافع عن نبيِّ الله يوسف ودفعَ عنه هذه التهمةَ الظالمةَ التي لا تليق بكمالِ الأنبياء عليهم السلام، الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليكونوا الأسوةَ الحسنةَ للناس، أجتَزىء من كلامه ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

إن كل من كان له تعلّق بتلك الواقعة شهد ببراءة يوسف عليه السلام، فيوسف قال: ﴿معاذَ الله﴾، وقال أيضاً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، والمرأةُ اعترفت وقالت: ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق أنا راوَدْتُه عن نفسه ﴾ والنِّسوة قلن ﴿ ما عَلِمنا عليه من سوء ﴾، وزوجُ المرأة عَرَف الحقيقة فقال لزوجته: ﴿ إنه من كيدِكنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عظيم ﴾، وقال لها أيضاً: ﴿ استغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين ﴾، وكذلك أظهر الشاهد من أهلها براءةَ يوسف عليه السلام، وحتى إبليس شهد بطهارته بقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِك لأُغوينَّهم أجمعين. إلا عبادَك منهم المخلَصين ﴾ ويوسف عليه السلام منهم لقوله تعالى: ﴿ إنّه من عبادنا المخلَصِين ﴾، وفوق كل ذلك شهادة الله تعالى العليم الخبير: ﴿ كذلك لنصرِفَ عنه السوءَ والفحشاءَ إنه من عبادِنا المخلَصِين ﴾[1].

برهان ربه

لقد تعدّدت آراء أصحاب الروايات الشاذة الذين اتّهموا يوسف عليه السلام بالهمِّ على فعل المعصية، في تفسير (برهانَ ربه)، ويدل تعدّد الآراء على ضعفها وتناقضها.

فبعضهم قال: إنَّ المرأة قامت إلى صنمٍ في زاوية البيت فسترته بثوب

(١) انظر: التفسير الكبير ١٨/ ١٢٠.

وقالت: أستحي من إلٰهي هذا أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحين من صنم ولا أستحي من إلٰهي القائم على كل نفسٍ بما كسبت؟ فوالله لا أفعل ذلك أبداً.

وبعضهم قال: تمثل له يعقوب عاضّاً على أصابعه وهو يقول: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء.

وبعضهم قال: رأىٰ في سقف الغرفة ﴿ ولا تقربوا الزنىٰ . . . ﴾.

وبعضهم قال: سمع هاتفاً يقول: لا تكن كالطير يكون له ريش، فإذا زنىٰ ذهب ريشه.

وبعضهم قال: ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج[1].

وكل هذه الروايات اجتمعت على شيءٍ واحد رغم ما فيها من اختلاف، وهو أنَّ برهان ربه الذي رآه يوسف عليه السلام كان شيئاً مادياً محسوساً، رآه بعينه أو سمعه بأذنه.

ولكني أرى أن البرهان كان شيئاً معنوياً رآه بعين بصيرته، قال العلامة أبو السعود رحمه الله: ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾: أي حجَّتَه الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوءِ سبيله، والمراد برؤيته لها كمالُ إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين[2].

وقد نقل هذا الألوسي في روح المعاني، وأقرَّه عليه[3].

وقال البقاعي رحمه الله: ﴿لولا أن رأىٰ﴾ بعين قلبه ﴿برهانَ ربه﴾ الذي

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير ٣/٣٩٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢٦٦.
(٣) انظر: روح المعاني ١٢/٢١٣.

أتاه إياه من الحكم والعلم، كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يغطه وفور شهوة ولا غلبة هوى[1].

ويتفق هذا المعنىٰ تماماً مع موضوع السورة الأساسي، فالوحيُ نوع من العلم يلقيه الله تعالىٰ في قلوب من يشاء من عباده، فتنجلي لهم بواسطته الحقائق، ولقد مرَّ معنا أن الله تعالىٰ قادر على إلقائه إليهم وهم نائمون، بما يريهم من الرؤيا الصادقة، فما بالك إذا كانوا أيقاظاً منتبهين.

وقد يقول قائل: لا شك أن يوسف عليه السلام كان يعرف من قبل قبح الزنا وأنه فاحشة ومعصية، فرؤيته له في هذا الوقت تحصيل أمر حاصل.

وأقول: إنَّ المعارف والعلوم لدى الإنسان تكون على درجاتٍ متفاوتةٍ في الوضوحِ والظهورِ والاقتناعِ بها، فثمَّةَ أمورٌ كثيرة نعرفها، ثم تطرأ علينا أحوال تزيدنا بها معرفةً ويقيناً، وقد يغفل الإنسان أحياناً عن كثير من الحقائق التي يعرفها، ثم يتذكرها فجأة في بعض الأحوال ويزداد يقيناً بها، ولعل البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام من هذا القبيل، فقد كان يعلم أنَّ الزنـى حرام وقبيح، ولكنَّه في هذا الوقت بالذات ازداد علماً ومعرفة ويقيناً بقبح الزنى وشناعته وتحريمه، فكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجبِ ذلك البرهان النيِّر على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم فلاح من يرتكبه[2].

ثم بيَّن الله تعالى الحكمة من جعل يوسف يرىٰ برهان ربه فقال: ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ ﴾ كالهمِّ بالزنى ودواعيه ﴿ والفَحْشَاءَ ﴾ كالزنى وغيره من كبائر الذنوب.

---

(١) نظم الدرر ١٢/٦٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢٦٦.

وسبب صرفه عن السوء والفحشاء بيّنه سبحانه في قوله: ﴿ إِنَّه مِنْ عِبَادِنا المُخْلَصِين ﴾ [٢٤].

الفـــرار

ثم بادر عليه السلام فَفَرَّ من ميدان المعركة، واتَّجه مُسْرِعاً نحو أول الأبواب المغلقة، فرَّ عليه السلام وهو المنتصر؛ لأنَّ بقاءه معها وراء الأبواب المغلقة والستائر المُسْدَلة يعرِّضه للشبهةِ والتُّهمة، والعاقلُ يسعىٰ لدرءِ الشبهات عن نفسه، ويتجنَّب مواطن التهمة والريبة.

وهو درس عملي علَّمه يوسف عليه السلام لكل عاقل يتدبَّر معاني كلمات الله تعالى في تنزيله الحكيم.

ورَسَم لنا عليه السلام أيضاً في سلوكه هذا أمراً آخر، وهو أن على الإنسان في مثل هذه المواقف أن يتهم نفسه فيفر، ولا يقر مغتراً بنفسه، زاعماً أنه متمكن منها ومسيطرٌ عليها، فقد يضعف الإنسانُ أمام نفسه، ويرمي لها بالزِّمام، فتقودُه إلى المهالك، وما أكثَرَ الذين انخدعوا بأنفسهم في مثل هذه المواطن فضعفوا وسقطوا!.

درسان بليغان وعِبْرتان كبيرتان فيما فعله يوسف عليه السلام، يحتاج إليهما كل فتىً وفتاة في هذا العصر.

أولهما: اتهام النفس وعدمُ الركون إليها والثقة بها.

وثانيهما: تجنّب مواطنِ الرِّيبة واتقاؤها، فإذا ما ابتليت ففر ولا تقر، وتذكَّر نبيَّ الله يوسف عليه السلام، فأنت مهما كنت لست أقوى منه ولا أتقىٰ منه.

ويجب أن يَضمَّ إلى فِرار الجسد عن مواطن التُّهمة والرِّيبة وابتعاده عن مواضع الفتنة، فراراً آخر بالروح والقلب إلى الله تعالىٰ الذي قال: ﴿ فَفِرُّوا

إلى الله إنِّي لكم منه نذير مبين ﴾[1].

وقد فعل يوسف عليه السلام هذا أيضاً كما سيأتي، وهو خلاصةُ التوجيه الكريم الذي توجَّه به ﷺ إلى ابن عباس قائلاً: «يا غلام إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تُجاهك، إذا سألت فاسألِ الله، وإذا استَعَنْتَ فاستعن بالله»[2].

﴿ وَاسْتَبَقَا البَابَ ﴾ والاستباق طلبُ السَّبَق إلى الشيء، قال العلماء: هذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني[3].

بادر عليه السلام كما قلنا إلى تركِ موضع الفتنة، واتّجه مسرعاً إلى الباب، واستبدَّت الشهوة بالمرأة، وطغت على جميع مشاعرها، واندفعت وراءَه متهالكةً عليه، مع أنَّ المرأة في مثل هذه الحالات تفضِّل أن تكون مطلوبةً لا طالبةً، فلا تكتمل لذَّتها ومتعتها إلا بذلك، وتَشَبَّثت بِثيابه من الخَلف وهي تجذبه إليها ﴿ وقدَّتْ قمِيصَه مِنْ دُبُرٍ ﴾: أي شقَّت قميصه طولاً من جهة ظهره.

ثم وقعت المفاجأة، إذ فوجئا بظهور زوجها عند الباب ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَها لَدَىٰ البَابِ ﴾: أي وَجَدا زوجها عند الباب، فهو (سَيِّدُها) وحدها لا (سيدهما) وليس سيداً ليوسف؛ لأن ملكيته ليوسفَ في الأصل ليست مشروعةً، والإسلامُ لا يعترف باستعباد الحر ولا يقرّه كأمر واقع، ويبقى الإنسان حراً في شرع الله تعالى، والحرام يبقى حراماً ولا يحل مهما طال عليه الزمن وشاع بين الناس.

وهو سيدها لأنَّ الزوج سيدُ زوجته ومالكُ أمرها بعد الزواج، وعليها أن

---

(١) الذاريات: الآية ٥٠.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ١٧٠.

تطيعه في غير معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿ الرجالُ قوَّامونَ على النساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ الآية[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[2].

وفوجئت برؤية زوجها، فبادرت تدفع التُّهمةَ عن نفسها وتتهم يوسف عليه السلام ﴿ قالت ما جزاءُ من أرادَ بأهلك سوءاً ﴾ تذكَّرت الآن أنها أهل هذا الرجل، وأنها موضعُ أمانتِه وشرفه ﴿ إلا أن يُسْجَنَ أو عَذابٌ أليمٌ ﴾ [٢٥] وهكذا وضعت نفسها في موضع المُدَّعي والقاضي، وأصدرت الحكم بسجنِ المتهم أو بمعاقبته بعذاب أليم.

وهذا يدل على أنها أرادت الانتقام من يوسف لكبريائها الجريحة التي مرغها عليه السلام بالتراب، وتبرئة نفسها أيضاً.

براءة يوسف عليه السلام

ومن عادة أكثر الناس في مثل هذه المواقف أن تستبدَّ بهم الغَيْرة فتثور ثائرتهم، وتغلي مراجل الغضب في صدورهم، ويندفعوا دون أدنى تبصر وروِيَّة إلى تصديق التهمة.

وكم أدى مثل هذا الاندفاع والتهور إلى اتهام البرآء، وحدوث المظالم، وسفك دماء بريئة، ولهذا شرع الله تعالى لإثبات جريمة الزنى شهادةَ أربعةِ شهود عدول من ذوي الديانة والأمانة، كما توعَّد الذين يرمون غيرهم بتهمة الزنى بعقوبة حد القذف فقال جل وعلا: ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾[3].

---

(١) النساء: الآية ٣٤.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) النور: الآية ٤.

وقولها: ﴿ ماجزاء مَن أرَادَ بأهلك سوءاً ﴾ بأسلوب الاستفهام، يدلُّ على أنها أرادت استفزاز مشاعِر زوجها وإثارةَ غضبه وغَيْرته، فينتقم من يوسف عليه السلام قبل أن يحقِّق بالأمر ويكتشفَ الحقيقة.

ولكن الله سبحانه أراد أمراً آخر، وهو غالب على أمره، أراد جل وعلا إظهار براءة نبيه يوسف من التهمة التي حاولت هذه المرأة إلصاقَها به، وهو سبحانه يدافع عن الذين آمنوا ﴿ إنَّ الله يدافعُ عن الذين آمَنوا إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ كفور ﴾[1]، فالأولىٰ والأحرىٰ أن يدافع عن أنبيائه وأصفيائه الذين اختارهم بحكمته وعلمه، ورفعهم إلى مقام الأسوة الحسنة للناس، فلا يمكن الفجَّار والفسَّاق من تشويه سمعتهم وتنفيرِ الناس عنهم.

ولما حاول بعض بني إسرائيل أن يفعلوا مثل هذا بنبي الله موسىٰ عليه السلام، وأشاعوا عليه قالة السوء، أظهر الله تعالى براءته وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسىٰ فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾[2].

ألهم سبحانه زوجَ المرأة أن يقابل استفزازَها له بهدوء وتأنٍّ وَرَوِيَّةٍ، ويبدو أنه لم يصدِّق ادعاءَها بسبب ما علمه من أخلاق يوسف ونُبْلِه وصدقه وأمانته.

وبادر عليه السلام إلى الدفاع عن نفسه قائلاً بثبات قلب ورباطة جأش: ﴿ قال هي رَاوَدَتْني عن نفسي ﴾ واضطر عليه السلام أن يوجِّه التهمة إليها ليدافع عن نفسه، ولولا ذلك لكَتَم عليها ولم يفضحها[3]، فالستر أولى في مثل هذه الحالات، وهو ما نَدَب إليه الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) الحج: الآية ٣٨.
(٢) الأحزاب: الآية ٦٩.
(٣) تفسير النسفي ٣/٣٩٨.

«وَمَنْ سَتَرَ مسلماً سَتَره الله في الدنيا والآخرة»[1].

وتدلُّ قرائن الحال كلها على صدق يوسف وبراءتِه، فتغليقُ أبواب القصر لا يتمُّ إلا بأمرها وإرادتها، وزينتها الكاملة وحرصها على إبداء مفاتنها، ووجودها عند الباب، كل ذلك يدل على كذبها، ولو كان عليه السلام طالباً لها لحاصرها في الداخل لا عند الباب.

ومع كل هذه القرائن هَيَّأ الله تعالى برحمته شاهداً من أهلها ليكون ألزم لها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ من أهلِها ﴾.

المتكلمون في المهد

واختلف المفسرون في الشاهد، هل كان كبيراً أو صغيراً، فقال بعضهم: كان صبياً في المهد أنطقه الله عز وجل، وهي رواية عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تكلَّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»[2].

إلا أنَّ ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما يدل على أن المتكلمين في المهد ثلاثة فقط، ليس شاهد يوسف منهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وبيْنا صبيٌّ يرضع من أمه فمرَّ رجل راكب على دابَّة فارهة وَشَارَةٍ حسنة، قالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثلَه، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع...»[3].

وقد ظنَّ بعضهم أن حديث أصحاب الأخدود الذي أورده مسلم في

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.
(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم.

صحيحه يعارض هذا الحديث، لكن لفظ الحديث يدل على أن المتكلم في قصة أصحاب الأخدود ما كان صبيّاً في المهد، بل كان غلاماً، ولفظه: «. . . حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنَّك على الحق».

ولهذا رجَّح القرطبي رحمه الله أن يكون الشاهد رجلاً لا صبياً في المهد، وقال: لو كان صبياً تكلَّم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى استدلالٍ بالقميص، ويكون ذلك خرق عادة ونوع معجزة[1].

وللمرة الثانية يذكر قميص يوسف في القصة، وهو في هذه المرة غير القميص الذي حَمَله إخوته إلى أبيهم وجاؤوا عليه بدم كذب.

وقد قدَّر تعالى أن يجعل في هذا القميص الدليلَ القاطعَ على براءته عليه السلام وصدقِه، وأن يجيءَ ذلك على لسانِ شاهدٍ من أهل امرأة العزيز الذي قال: ﴿ إن كان قميصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ ﴾: أي من جهة صدره ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ في ادعائها ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ [٢٦] لأنَّ تمزيقَ القميص في هذه الحالة يدل على أنه هو الطالب لها وأنها كانت تدفعه عنها.

﴿ وإنْ كانَ قميصُهُ قُدَّ من دُبُرٍ ﴾ من جهة ظهره ﴿ فَكَذَبَتْ وَهُوَ من الصَّادقِينَ ﴾ [٢٧] لأنه يدلُّ على أنها كانت تطلبه وهو مُعْرِضٌ عنها.

﴿ فلما رأى قَمِيصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ ﴾ تأكَّد زوجها من صِدق يوسف عليه السلام وأمانتِه وبراءتِه، وعَرف كذبَها وخيانَتَها، ومع ذلك لم يفعل شيئاً سوى أن قال على وجه العموم دون أن يوجِّه كلامه إليها ﴿ قال إنَّه مِنْ كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عظيم ﴾ [٢٨] إنَّ ما حدث من مكركُنَّ واحتيالِكُنَّ، وهو مكر واحتيال كبير، فالمرأة تملك من وسائل المكر والكيد بالرجل شيئاً كثيراً؛ ولهذا

---

(١) تفسير القرطبي ٩/١٧٤.

قال ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[1].

وتعطينا الآيات صورة لما يحدث في المجتمعات الغنية المترفة المنحلَّة البعيدة عن الإيمان بالله تعالى، فالانهماك في السَّرَف والترفِ قد جمَّد مشاعرهم البشرية، وأضعفَ الإحساسَ الفطريَّ الطبيعي في غيرتهم على أعراضهم وشرفِهم، وهذا ما نشاهده في العصر الحاضر في المجتمعات المادية الغربية من تبلّدٍ في المشاعر يصل في كثير من الحالات إلى حد الدياثة[2].

واكتفى عزيز مِصرَ بتوجيه بعض اللوم والعتب إلى زوجته بأسلوب الوعظ والنصح بعد أن أمر يوسف بكتمان ما حدث ﴿ يوسف أعْرِض عن هذا ﴾: أي لا تتحدث به ولا تهتم به ولا تلتفت إليه.

﴿ واستغفري لذنبك إنَّك كُنْتِ من الخاطئين ﴾ [٢٩] ولم يقل: إنك كنت خاطئةً، محافظة على مشاعرها، كأنَّه كان يخشى مواجهتها بهذه الصفة، وقد تعجَّب بعضهم من برودة أعصابه وسكون نفسه في موقف تغضبُ فيه النفوس عادةً، وردُّوا سببه إلى لطف الله تعالى بنبيه يوسف عليه السلام[3].

ولا شك أن فيه لطفاً من الله تعالى، ولكني أرى أن سببه يعود إلى حياة السَّرَف والتَّرَفِ والبعدِ عن دين الله وشريعته.

ويُسْدَلُ السِّتَار على المشهد وما فيه ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ وقد صوَّر السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها، ولكن دون أن ينشىء منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي

---

(١) متفق عليه.
(٢) فَقْد الغيرة والخجل، والديوث: من يرى الخبث في أهله وخاصته ويقرهم عليه.
(٣) انظر: تفسير القرطبي ٩/١٧٥.

المقبوح[1]، كما يفعل كثير ممن يسمونهم بأدباء القصة في العصر الحاضر، تجار الأدب الجنسي المكشوف.

لقد أخذت مشاهد الجنس في القصة مساحتها كاملةً في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان، من غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقع، ومرَّت الآيات على هذه المشاهد، وهي تعرض أحداث القصة دون أن تقف عندها، كأنها محورُ حياة الإنسان كلها كما يفعل أدعياء الأدب، إنهم يحاولون مسخ الكائن البشري باسم الواقعية والصدق الفني، فيعرضون مواقف الجنس كما لو كانت هي وجهة الحياة البشرية بجملتها، فيجعلون منها مستنقعاً واسعاً عميقاً، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية[2].

المقطّعات أيديهن

وشاع الخبر وانتشر رغم التكتّم عليه ومحاولةِ إخفائِه، ولاكَتْهُ ألسنة ربَّات القصور من أمثال امرأة العزيز، اللواتي لا همَّ لهنَّ إلا أن يتحدثنَ عن خفايا القصور وفضائحها.

﴿ وقال نِسْوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز ﴾: أي عزيز مِصر، فهي زوج عزيز مصر الذي يأتي في التمكّن والسلطان بعد الملك مباشرة ﴿ تُراوِدُ فتاها عن نفسه ﴾: أي تطلبه للوصال، وإيثارهنَّ صيغةَ المضارع للدلالة على دوام المراودة، كأنَّها صارت سَجِيَّةً لها، أَضَفْنَهُ إليها ﴿ فَتَاهَا ﴾ لإبانة ما بينهما من التباين البيِّن، الناشىء عن الخادمية والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، مبالغة في لومها[3].

﴿ قد شَغَفَها حُبّاً ﴾: أي غَلبها حبه حتى شقَّ شغاف قَلبها، وهو حجابه أو وسطه.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٨٣.

(٢) المرجع نفسه ٤/١٩٥٩.

(٣) انظر: روح المعاني ١٢/٢٢٦.

ومرادهن تأكيد لومها وعذْلِها في حُبِّها له، وهي امرأةُ العزيز، بينما هو فتىً من فتيانها ومملوكٌ من مماليكها، فلومهنَّ غيرُ متَّجِهٍ إلى تقبيح الزنى فكأنهن لا يرَين به شَيْناً ولا قبحاً، وإنما لومُهُن مُتَّجِهٌ إلى كونها لم تراعِ في اختيارها ما يناسبها في مكانتها الاجتماعية المرموقة.

﴿ إنا لنَراها في ضلالٍ مبين ﴾ [٣٠]: أي في خطأٍ واضحٍ ظاهر لأنها لم تحسن اختيار من يناسبها.

﴿ فَلمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾: أي علمت بلومهنَّ لها، وما يتحدثنَ به عنها، وجاء التعبير عنه بالمكر؛ لأنَّ إشاعته ونشره فضيحةٌ كبرى بالنسبة لمكانتها العالية المرموقة في أوساط المجتمع، فهو نوع من أقبح أنواع الغيبة المحرمة في الإسلام، التي قال تعالى فيها: ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾[1].

﴿ أَرْسَلت إليهنَّ ﴾ تدعوهنَّ إلى وليمةٍ في قصرها ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً ﴾: أي هَيَّأت لهنَّ مجلساً للطعام يتَّكِئْن فيه، كما هو حال المترفين المتكبرين.

﴿ وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً ﴾ لتقطيع ما يقدَّم لهنَّ من طعام وفاكهة، وهذا يدلُّ على أن المصريين القدماء قطعوا شوطاً كبيراً في التمدن.

وبعد أن أمرت بتقديم الطعام إليهن، وانشغلن بتقطيعه وتناوله، أمرت يوسف عليه السلام أن يظهر أمامهن ﴿ وَقَالَتِ اخْرُج عليهنَّ ﴾ وما كان عليه السلام يستطيع مخالفة أمرها، فلا يزال يعيش في قصرها، ويبدو أن زوجَها لم يفكر في إبعاد يوسف عنها.

---

(١) الحجرات: الآية ١٢.

﴿ فَلمَّا رَأَيْنَه أَكْبَرْنَهُ ﴾: أي عَظَّمْنَه لحسنِهِ وجماله، فدهشن وتحيَّرن ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾: أي جَرَحن أيديهن وسالت دماؤهن، فما أَحْسَسْنَ بألم الجراح لفَرْط دهشتِهنَّ وحَيْرتهنَّ وانشغالِهنَّ بجماله عليه السلام، ﴿ وقُلْنَ حَاشَا لله ﴾: أي يتنزَّه الله خالقُ هذا الجمال ومبدعُه، فمن قدر على خلق هذا الجمال يتنزَّه عن كل صفات النقصان ويتصف بكل صفات الكمال ﴿ ما هذا بشراً ﴾ لأنه فاق البشر بالحسن والجمال وفاقهم أيضاً بعفته وأمانته، مع أنه في غاية شبابه ورجولته ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ [٣١] في جماله وأخلاقه.

ويدل قولهن هذا على أنَّ رسالة الأنبياء والمرسلين قد وصلتهم وبلغتهم، فهم يقرّون بوجودِ اللهِ خالق المكوِّنات، وبوجود عالم الملائكة، فما من أمةٍ إلا أرسل الله تعالى إليها رسولاً كما قال سبحانه: ﴿ وإنْ من أمّةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾[1]، والمصريُّون من أقدم الأمم حضارةً ومدنيَّةً، ولا بد أنَّ الله تعالى أرسل إليهم رسلاً، وكان يوسف عليه السلام واحداً منهم.

ضحايا الفساد والاستبداد

وحولتهُنَّ رؤية يوسف من العذل إلى العزر[2]، وأحست امرأة العزيز بشيء من الزهو والانتصار، و ﴿ قالت ﴾ وهي تشير إلى يوسف بإشارة التفخيم: ﴿ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه ﴾: أي في حبه وعشقه، ثم اعترفت لهنَّ بكل صراحةٍ قائلة: ﴿ ولقد رَاوَدتُّه عن نفسِه فاستعصَمَ ﴾: أي عَصَم نفسه عنها رغم كثرة المراودة وقوتها، ورغم اكتمال شبابه ورجولته.

وبعد أن تراجعنَ عن لومهنَّ وعذلهنَّ لها، لم تجد غضاضة أن تصارحهنَّ بأنها ما زالت عاشقةً له، مشغوفةً به، مصمِّمةً على أن تنال مرادها

---

(١) فاطر: الآية ٢٤.

(٢) العذل: اللوم، والعزر: النصر والتأييد.

منه، ولو بالتهديد والوعيد ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَل مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ من الصاغرين ﴾ [٣٢] ويدل قولها هذا على أنَّ الفضيحة لم تؤثِّر على مكانتها، ولم تضعف سلطانَها وتسلُّطَها، فالمجتمعات التي استشرى فيها الفساد والاستبداد لا تؤثر فيها الفضائح، بسبب إدمانها عليها وكثرتها فيها.

فلا زالت امرأة العزيز تستطيع سجن نبي الله يوسف عليه السلام، وتعريضه لصنوف من الأذى والعذاب.

لقد عرف تاريخ البشرية وواقعها المعاصر كثيراً من أمثال هذا المجتمع المنحل الهابط، الذي تتحكم بمصير أبنائه حَفْنة من الرجال الضعفاء المنحلين، الذين سيطرت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسلموا أمورهم إلى نسائهم وخليلاتهم، حتى أصبحن الحاكمات الحقيقيات لهذه المجتمعات، وأصبحت أكبر الشؤون وأخطرها تدار من مخادعهن وأماكن لهوهن وفجورهن.

وهذا يفسِّر لنا بقاءَ يوسف في قصرها رغم الفضيحة التي حدَثت.

إنَّ من المتوقع في مثل هذه الأحوال أن يبادرَ عزيز مصر إلى إبعاد يوسف عن زوجته بعدما رأى من شدَّةِ تعلقها وشغفها به، ولكنه لا يملك قرار الإبعاد لأنه بيدها لا بيده، فهي الحاكمة الحقيقية وهي صاحبة القرار.

ولم تستطع هذه المرأة بكل سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصر على نبيِّ الله يوسف عليه السلام، الذي لا يزال يعيش قريباً منها، في قصرها وتحت أمرِها وسلطانِها، وانضمَّ إليها جميع من تعرف من المترفات، يعرضن معها كل ما يملكن من أسباب الفتنة والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد.

وما كان عليه السلام صخرةً صمَّاء، لا إحساسَ لها ولا شعور، كما قال الشاعر:

أصخرة أنا مالي لا تغيِّرُني ... هذي المُدامُ ولا هذي الأغَاريد

بل كان قلباً إنسانياً كريماً رحيماً، ينبضُ بأعلى المشاعر وأرفعها، ولهذا اتَّجه إلى الله تعالى يدعوه، وهو واقف بينهنَّ، وهنَّ يراودنه عن نفسه، ويتبارَيْن في عَرض فِتنتِهنَّ وجمالهن عليه:

﴿ قَال ربِّ السِّجْنُ أحَبُّ إليَّ مما يَدْعُونَني إليه ﴾ اختار عليه السلام أخفَّ الضررين وأهونَ الشرين، فالسجنُ فيه إضرارٌ ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرار بدينه وخلقه، وهو أشدُّ ضرراً وأعظم خطراً من الأول، ورسم عليه السلام بسلوكه هذا القاعدة الشرعية الفقهية: يُختار أهون الشرين وأخف الضررين.

والسجنُ بلاء، لا ينبغي لأحد أن يتمناه، ولكنه عليه السلام آثره على ما يدعونه إليه، فهو معنى قوله: ﴿ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ﴾ ثم تواضع لله جل وعلا، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرَّد نفسَه عن كل حول وقوة، فلا حَوْل له إلا بالله تعالى، ولا ثباتَ له في محنته إلا بتثبيته سبحانه، فأقبل عليه جل جلاله يناجيه بضراعةٍ وخشوع:

﴿ وإلاَّ تَصْرف عنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ ﴾: أي أمِلْ بسبب ضعفي وطبعي إليهن ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلينَ ﴾ [٣٣] الذين لا يعملون بما يعلمون، أو من السفهاء الطائشين.

فلا يغترَّ إنسانٌ بنفسه ويعرض عن ربه، فلا يمتنع أحد عن معصية الله تعالى إلا بعونه ومدده جل وعلا.

ودلَّ دعاؤه عليه السلام على أن الزنى لا يحل بالإكراه مهما كان شديداً، ولو أُكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً[1].

﴿ فاستجابَ له ربُّه فَصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ ﴾ بتثبيته ومعونته سبحانه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٨٧/٩.

﴿ إنَّه هُوَ السَّميعُ ﴾ لدعاءِ الملتجئين إليه ﴿ العَليم ﴾ [٣٢] بأحوالهم.

ونفَّذَتِ امرأةُ العزيز تهديدَها ووعيدَها بعد أن يئست من نَيْل مُرادِها، ودخَل عليه السلام السجن.

﴿ ثم بَدَا لهم ﴾: أي عزيز مصر ومن حوله ﴿ مِنْ بَعْد ما رَأَوُا الآيَاتِ ﴾ الدالَّة على براءةِ يوسف وأمانتِه وعفَّتِه ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حِينٍ ﴾ [٣٥] دون إدانة ولا محاكمة، ولهذا لم يحدّدوا مدةً معيَّنة لسجنه، فالحين وقتٌ غيرُ محدَّد، وكم في السجون من أبرياء، هم ضحايا الفساد والاستبداد، وما أكثر الذين دخلوها أحياءً وخرجوا منها أمواتاً!!.

يوسف عليه السلام في السجن

ودخل نبيُّ الله الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم السجنَ بعد أنْ خرجَ من محنته الكبرى في قصر العزيز تقيّاً نقيّاً، ليواجهَ محنةً أخرى، ضيق السجن وظلمتَه ووحشتَه، والشعورَ بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس، يزيدها همّاً وألماً وحسرةً.

ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هيَّأ له سبب خروجه منه عند دخوله.

﴿ وَدَخل مَعَهُ السِّجنَ فَتَيَانِ ﴾ فقد دخل عليه السلام باختياره وإرادته كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ قال ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونَني إليه ﴾ وبقيت امرأة العزيز تراوده حتى دخوله السجن.

وأما الفتيان فإنهما أُدخلا السجن مُكرَهين مُجْبرين، وكانا من حاشية ملك مصر والمقرَّبين منه، أحدهما: كان طباخَ الملك والمسؤول الأول عن طعامه، وثانيهما: كان ساقي الملك والمسؤول الأول عن شرابه، وقد نُمِيَ إلى الملك أن مؤامرةً تحاكُ لقتله بواسطة دسِّ السُّم في طعامه أو شرابه، فأمَرَ بسجن السَّاقي والطبَّاخ للتحقيق معهما في الأمر.

وهذا يدل على أنهما سُجنا مع المتهمين بأكبر الجرائم وأخطرها في

نظرِ الحكَّام، الجرائم التي تسمَّى في العصر الحاضر: الجرائم السياسية، ويسمَّى أصحابها: المجرمون السياسيُّون، ويعامل هؤلاء في السجون معاملةً قاسيةً شديدةً، ويتعرَّضون لأشدِّ أنواع التعذيب الجسدي والنفسي على يد سجَّانين خاصين، يُختارون لهذه المهمات، ويُدربون عليها. كما يدلّ على أن يوسف عليه السلام سُجن مع هؤلاء.

وللرؤى والأحلام تأثير كبير على المسجونين، إذ هي صلتهم الوحيدة بالحرية والحياة خارج أسوار السجن، تمنِّيهم بأمانٍ عَذْبة، تبعث آمالَهم وتنعشُ قلوبَهم ونفوسهم.

منىً إن تكن حقاً تكن أعذب المنى وإلا فقد عِشْنا بها زمناً رغدا

فهي محور حديثهم عندما يستيقظون من نومهم.

رؤيا الفتيين

وعادت الآياتُ مرَّة ثانيةً إلى موضوع الرؤيا وتأويلها، فللرؤيا في قصة يوسف دورٌ كبير في تحريك أحداث القصة بتقدير الله تعالى، ولها أيضاً صلةٌ وثيقةٌ بموضوع السورة، كما مر معنا.

إذ قدَّر سبحانه أن يرى كل واحد من هذين الفتيين رؤيا، قصَّها على نبي اللهِ يوسُفَ طالباً منه تعبيرها.

﴿ قال أحدُهما إنِّي أراني ﴾: أي رأيت، وعبَّر بالمضارع لاستحضارِ صورةِ الرؤيا ﴿ أعْصِرُ خَمْراً ﴾: أي أعصر عِنَباً، وسمَّاه خمراً باعتبارِ ما يؤول إليه، فلا يعصرون العِنَب إلا ليصنعوا من عصيره الخمر، ويبدو أن الساقي هو صاحب هذه الرؤيا.

﴿ وقال الآخَرُ إنِّي أراني أحْمِلُ فوق رأسي خُبْزاً تأكلُ الطَّيرُ منه ﴾ ويبدو أنها رؤيا الطباخ، فرؤيا كل واحد منهما متَّصِلةٌ بطبيعة عمله في قصر الملك.

﴿ نَبِّئْنَا بتأويلِه ﴾: أي أخبرنا بتعبير ما رأينا، وبيِّن لنا مآلها، فأول ما يهجس في خاطر السجين إذا رأى رؤيا أنها رؤيا تنبُّئيّة، وأنه يمكن أن يرى من خلال تعبيرها مصيرَه ومستقبلَه.

﴿ إنا نراك من المُحسنين ﴾ [٣٦] في تعبير الرؤى. فقد كان عليه السلام، يُعَبِّر للسجناء رؤاهم وأحلامَهم، وكان أيضاً يُحسن إليهم في معاملته، يواسيهم ويساعدهم. فهو من المحسنين حقاً، أحسن في طاعة الله تعالى وعبادته، كما مر معنا، وأحسَنَ في معاملته مع الناس في سَعَة القصور وفي ضِيق السجون، بقي عليه السلام محافظاً على جوهره الأصيل المضيء، ثابتاً في مقام الإحسان رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبديل.

ولم ينس عليه السلام مهمته الأساسية التي كلفه الله تعالى بها، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهو نبيٌّ مرسَلٌ كريم يحمل دعوة ورسالة، وعليه أن يبلِّغَها للناس في كل مكان، في القصور أو في السجون، وفي أي زمان، وما علَّمه تعالى علم تأويل الرؤيا إلا ليسخِّره في دعوته وتبليغ رسالته، فهو وسيلة لجَذْبِ الناس إليه والتفافِهم عليه، وهو أيضاً وسيلة لتعريف الناس بصدقه وصحة نبوته، وتقريبِ معنى الوحي وحقيقته من قلوبهم وعقولهم، كما مر معنا في موضوع السورة.

دعوة إلى الله في السجن

وقام عليه السلام بذلك خير قيام، عرض على الفتيين أولاً الأمر المعجز الخارق لعادات الناس الذي أجراه الله تعالى على يده كدليلٍ على صدقه وصحة نبوته، وهو قدرته على رؤية الحوادث المستقبلة القريبة الحدوث، وذكر لهم أمثلة عملية على ذلك.

﴿ قال لا يأتيكُمَا طعامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ من خارج السجن بواسطة الزائرين من الأهل والأقارب والأصحاب، وما أراد عليه السلام طعام السجن الذي

يقدَّم عادةً للسجناء، والذي ألِفوه واعتادوا عليه، وعلموا أنواعه وأوقاته، فنفوسُ السجناء تنتظر بشوق ولهفة زيارة صديق أو قريب، وتفرح كثيراً بما يحمله الزائرون لهم من هدايا أو طعام، إن الزيارة تنعش آمالهم وتبعثُ فيهم الحيويَة والنشاط، وتجعلهم يشعرونَ أنه يوجد في العالم الثاني خارجَ أسوار السجن من يهتمُّ بهم ويشاركهُم همومَهُم وحزنَهُم. وإخبار السجين بزيارةٍ قريبة الوقوع، وبما يحمل الزائر معه من طعام، بشرى سارَّة له تنزل على قلبه نزول المطر على الأرض العطشى التي طال عطشها واشتد ظمؤها، وعُرف عليه السلام بين السجناء بهذا الأمر، ولهذا ذكَّرهم به وحدّثهم عنه حديث الواثق من نفسه ﴿ إلا نَبَّأْتُكُما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ أي: إلا أخبرتكما بحقيقته قبل أن يصل إليكما.

ثم بيَّن لهما أن هذا الذي يجري على يديه ليس في الحقيقة منه، إنما هو من الله تعالى ﴿ ذلكما مِمَّا علَّمني ربي ﴾ فهو عِلمٌ لدنّي من الله تعالى، الذي هو مصدر كل علم، يلقيه إلى من يشاء من عباده بواسطة الوحي، وعلوم الوحي حق وصدق لا يلحقها أي خطأ. وبهذا تمكَّن عليه السلام من أن يدخل إلى نفسَيْهما بلطف وذكاء، وأن يشدَّ انتباهَهُما إلى الله تعالى، فَعَرَض عليهما عقيدةَ التوحيد من خلال حديثه معهما عن نفسه، فقد كانا يثقَان به ثقةً كبيرة، فقال: ﴿ إنّي تركتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ الذين كان يعيش معهم خارج السجن فهم قوم الفتيين اللذين يتحدَّث إليهما، فهو أسلوبٌ لطيف بيَّن فيه خطأ ما كانا عليه من ملة واعتقاد ﴿ لا يؤمنونَ بالله ﴾ حقَّ الإيمان؛ لأنَّهم لا يعبدونه سبحانه وحده، ولا ينزهونه عن صفات النقص، فمعرفة وجود الله تعالى غير كافية للإيمان به، وقد كانوا كما مرّ معنا يعرفون وجود الله تعالى، ويجري على ألسنتهم ذكره، ولكنهم ما كانوا يتجهون إليه وحده بالعبادة والطاعة.

ثم وصفهم بصفة أخرى تجعلهم أيضاً غير مؤمنين بالله تعالى: ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ [٣٧]: أي لا يصدِّقون بيوم القيامة وما فيه من حساب

وجزاء وهو ركنٌ هام من أركانِ الإيمان يدلُ على كمالِ قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته.

﴿ واتَّبعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ما كانَ لنا أنْ نُشْرِكَ بالله مِنْ شيء ﴾ فملّتهم هي مِلّة التوحيد القائمِ على تنزيه الله عن أيِّ شريك، وهذا الاتباع فضل من الله تعالى ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى النَّاس ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَشْكُرون ﴾ [٣٨] لا يشكرون الله على نعمة إرسال الرسل وإنزال الوحي، كما قال تعالى: ﴿ وقليلٌ من عبادي الشَّكور ﴾[١].

وبعد أن دخل عليه السلام إلى نفسَيْهما هذا المدخل اللطيف، أخذ يتوغّل أكثر وأكثر في حَذَرٍ ولين، حتى أفْصَح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً، وصارحهما بفساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوب يقوم على التفكير والموازنة العقلية المؤدِّية إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفتها.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ فهما صاحبا سجنه ورفيقا محنته ومشقّته، فصحبتُه لهما صحبةٌ صادقة ممزوجةٌ بالألم والعناء، لا غشَّ فيها ولا خداع ﴿ أأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهَّار ﴾ [٣٩] فكثرة الأرباب توجد الخَلَل والفساد في العالم، كما قال تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدتا فسبحانَ اللهِ ربِّ العرش عمَّا يصفون ﴾[٢].

ثم إن هؤلاء مقهورون ومسخَّرون للهِ الواحدِ الأحدِ الذي ذلَّ كل شيء لعزِّ جلاله وعظمة سلطانه.

﴿ ما تعبدونَ من دونه إلا أسماءً سمَّيْتُموها أنتم وآباؤكم ﴾: أي ما تعبدون إلا أسماء لا مسمَّيات لها؛ لأنها في الأصل لا تستحِق أن تُعبَد وتُعظّم، فكأنَّها معدومة غير موجودة ﴿ ما أنْزَل الله بها من سُلْطان ﴾: أي ما

---

(١) سبأ: الآية ١٣.

(٢) الأنبياء: الآية ٢٢.

أنزل الله حجة ولا برهاناً على عبادتها ﴿ إنِ الحكمُ إلا لله ﴾: أي الحاكمية في الدين والتشريع لله تعالى وحده، وقد ﴿ أمَرَ ألا تعبدوا إلا إيَّاه ذلك الدينُ القيِّم ﴾ المستقيم الثابت ﴿ ولكنَّ أكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمون ﴾ [٤٠] هذه الحقائقَ، فيتخبَّطونَ في جهالاتهم وضلالِهم.

ثم عبَّر عليه السلام لكلٍّ منهما رؤياه بعد أن وجَّه إليهما هذه الدعوة الصريحةَ إلى دين التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، فلقد رأى كل واحد منهما رؤيا تنبُّئيّةٍ تخبر عن مصيره ومستقبله ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾: أي سيصبح ساقي الملك وصاحب شرابه، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولم يعيّنه لئلا يدخل الحزن على الآخر، ﴿ وأما الآخر فَيُصْلَب فتأكلُ الطَّيرُ من رأسه ﴾: أي يقتل ويُصْلَب وتأكلُ الطَّير من لحم رأسه ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيان ﴾ [٤١]: أي قدِّر وأُبْرِم الأمرُ الذي سألتما عنه، وهذا يدل على شدَّةِ ثقته بنفسه عليه السلام، فهو ينظر بعينِ النبوَّة التي لا تخطىءُ أبداً؛ لأنها تنظر بوحي الله تعالى علاَّم الغيوب.

ولم يترك عليه السلام الأخذ بأسبابِ السلامة والخروج من السجن، مع توكله على الله تعالى وتفويضِ أمرِه إليه، ولما أمَرَ الملك بإخراج الساقي من السجن، وجاء يودع يوسُفَ عليه السلام ويَعْرِضُ عليه مساعدتَه طلبَ عليه السلام منه أن يذكرَ أمرَه للملك لعلَّه أن ينصفَه ويخرجَه من سجنه.

﴿ وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما ﴾: أي عَلِم وتيقَّن بنجاته، فالظن يأتي بمعنى اليقين والعلم، كما في قوله تعالى: ﴿ إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حِسَابِيَه ﴾[1].

﴿ اذْكُرْني عِنْد ربِّك ﴾: أي سيّدك ومتولي أمرك، ولكنه بعد خروجه من السجن وعودته إلى العمل في القصر، انشغل بما فيه من زخرف ومتاع،

---

(١) الحاقة: الآية ٢٠.

وأنْساه الشيطانُ قضيَّة يوسفَ عليه السلام، حتى مرَّت سنواتٌ ويوسُف عليه السلام في السجن ﴿ فأنْساه الشيطانُ ذِكر ربه ﴾: أي تذكيرَ الملك بقضيّة يوسف ﴿ فَلَبِثَ في السِّجْن بِضْعَ سنين ﴾ [٤٢] والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع.

رؤيا الملك

بقي عليه السلام في السِّجن حتى جاءه الفَرَجُ من الله تعالى مباشرةً، وكان ذلك بسبب ما قدَّر سبحانه لملك مصر أن يرى في نومه رؤيا تنبُّئيّةٍ، كانت بتقدير العليم الحكيم سَبَباً لخروج يوسف من السجن، ونهاية لمحنه وآلامه.

﴿ وقال الملِكُ إنِّي أَرَى سَبْعَ بَقراتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهنَّ سَبعٌ عِجَاف ﴾ مهازيل ﴿ وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْر وَأُخَرَ يابساتٍ ﴾ وقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليهن، فحالهن كحال البقرات.

اهتمَّ الملك لهذه الرؤيا التي يظهر منها أن الضعيف يغلب القوي، ولعله خشي أن يكون لها صلة بحكمه وسلطانه، فجمع أعوانه ووزراءَه وكبار الكهنة والمنجمين والسحرة فقصَّها عليهم، ثم قال: ﴿ يا أيُّها الملأُ أفتونِي في رُؤْيَايَ إنْ كنتم للرؤْيا تَعْبُرُون ﴾ [٤٣]: أي إن كنتم عالمين بتعبير الرؤيا، وعلمُ التعبير مختصٌّ بتفسير الرؤيا، وسمي هذا العلم تعبيراً لأنَّ المفسر للرؤيا يعبر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها[1].

﴿ قالوا أضْغَاثُ أحلامٍ ﴾: أي هذه الرؤيا مجموعة أحلام باطلة ومختلطة، وأصل معنى الضغث: الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش، كما في قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً فاضرِب به ولا تحنَثْ إنَّا وَجَدْناه صَابِراً نِعْمَ العبدُ إنه أوَّاب ﴾[2].

---

(١) تفسير الخازن ٣/٤١٢.

(٢) ص: الآية ٤٤.

وهكذا أعجزهم الله تعالى عن تعبيرها، وحَجَبَهم عن تأويلها لأمر دبَّره وحكمةٍ قدَّرها، فأقروا بعجزهم وجهلهم ﴿ وما نَحْنُ بتأويلِ الأحلام بعَالِمين ﴾ [٤٤].

وكان الفتى السَّاقي صاحب يوسف في السجن حاضراً مجلس الملك، فعندما سمع رؤيا الملك ورأى عجز المعبِّرين المنجِّمين والسحرة عن تأويلها، تذكَّر صاحب سجنِه يوسف عليه السلام.

﴿ وقال الذي نَجَا منهما وادَّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ ﴾: أي تذكَّر أمرَ يوسفَ بعد مدةٍ طويلة:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماءِ يُفتقد البدرُ

﴿ أنا أُنَبِّئُكُم بِتأْويله ﴾: أي أخبركم بتأويل رؤيا الملِك، وكلماتُه تدل على شدة ثقته بنفسه ﴿ فَأَرْسِلون ﴾ [٤٥]: أي ابعثوني إلى من عنده علم التأويل والتعبير.

تعبير الرؤيا

ولما كان الأمر يتصل بالملك، وعلى جانبٍ كبير من الخطورة والأهمية ذهب السَّاقي بنفسه إلى يوسف في السجن، فخاطبه باحترام وتعظيم قائلاً: ﴿ يوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ ﴾ أيُّها المبالغ في الصدق، قال ذلك حسبما علمه وجرَّبه من أحواله في مدة إقامته معه في السجن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ على المستفتي أن يعظِّم المفتي[1].

﴿ أفْتِنَا في سَبْعِ بقراتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لعلّي أرْجِعُ إلى النَّاس ﴾ وهذا يدل على أن رؤيا الملك شاعت وانتشرت بين الناس، وأحدثت نوعاً من الخوف والاضطراب في

(١) روح المعاني ٤/٢٥٤.

نفوسهم ﴿ لَعَلَّهمْ يَعْلَمُون ﴾ [٤٦] تأويلها، ويعلمون أيضاً فضلك وعلمك ومكانتك، وكأنه بهذا أراد أن يعتذر ليوسف عن تقصيره في حقه ونسيانه لقضيته.

ودون أن يستفسر عليه السلام عن الرائي وصفاته وأحواله ومهنته واسمه وكنيته والوقت الذي رأى فيه الرؤيا كما يفعل المعبرون، قال عليه السلام بلسان الواثق من نفسه وعلمه؛ لأنه نبيٌّ يرى بعين الوحي والنبوة، ولا يحتاج إلى تفكير ومقارنة واستنباط واستدلال بالأسماء والأحوال، والأوقات والإشارات لمعرفة تأويلها ﴿ قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَباً ﴾ دائبين على الزرع بجدٍّ واجتهادٍ، دون انقطاع مدة سبع سنين متوالية.

ويلاحظ أنه عليه السلام وجَّه كلامه إلى عامة الناس؛ لأنه علم أن لهذه الرؤيا التنبُّئية صلة بالأحوال الاقتصادية والمعيشية التي سيكون عليها الناس لخمس عشرة سنة.

﴿ فما حَصَدتُّم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ ﴾: أي اتركوا الحبَّ بعد حصاد الزرع في داخل سنبله وقشْره، فذلك أبقى له على طول الزمن.

﴿ إلا قليلاً مِمَّا تَأْكُلُون ﴾ [٤٧]: أي استخرجوا من الحب مقدار ما يكفيكم في هذه السنوات، وادّخروا الباقي، وليكن ما تأكلون أقل مما تدّخرون.

﴿ ثُمَّ يأتي من بَعد ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾: أي سبع سنين مجدبة مُمْحِلة شديدة على الناس ﴿ يأكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُن ﴾ تستهلكون فيهن كل ما ادخرتم في سنوات الخصب السابقة ﴿ إلا قليلاً مما تُحصِنُونَ ﴾ [٤٨]: أي إلا قليلاً تحفظونه لزراعته وبذره.

﴿ثمَّ يأتي مِنْ بعد ذلك﴾ بَعد السنين السبع المجدبة ﴿عام فيه يُغَاثُ النَّاس ﴾ يمطرون، فالغيثُ هو المطر ﴿ وفيه يَعصِرون ﴾ [٤٩] الثمار

والفواكه، مما يدلُّ على سعة الرزق وكثرة الخِصْب.

التخطيـط للمستقبـل

لم يكتف عليه السلام بتعبير الرؤيا، بل بادر فوضع لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتموينية للأمة خلال خمس عشرة سنة مستقبلة.

فخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعةٍ وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثةً ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم، ووضع أصولها وطبقها النبيُّ الكريم ابن الكريم يوسُفُ عليه السلام.

ومع ذلك فإننا نرى أنَّ خطط التنمية ترسم وتطبق في المجتمعات الغربية الكافرة أكثر بكثير من المجتمعات الإسلامية التي يتلى فيها القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار.

نراهم يخططون لمستقبل حياتهم، ويضعون نصب أعينهم أهدافاً عاليةً لتقدمهم، ثم يطبقون خططهم ومناهجهم، وغالباً ما ينجحون في الوصول إلى أهدافهم وأمانيهم، بينما نرى أنفسنا في عالمنا الإسلامي المعاصر متخلفين وفاشلين، فلماذا وبين أيدينا القرآن الكريم يرشدنا ويهدينا؟!.

ولا يتعارض التخطيط للوصول إلى مستقبل أفضل مع الإيمان بالقضاء والقدر، فالتخطيط ليس إلا أخذاً بالأسباب الموصلَة بتقدير الله تعالى إلى الأفضل، والأخذ بالأسباب مطلوب شرعاً في الإسلام، قال تعالى: ﴿ وأعدُّوا لهم ما استَطَعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم... ﴾ الآية[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[2].

---

(١) الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) رواه مسلم.

ويوسف عليه السلام الذي رسم هذه الخطة لأحوال الأمة المعيشية لمستقبل يمتد خمسةَ عشر عاماً نبيٌّ كريم مؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أنَّ كل شيء خلقه تعالى بقدر، سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم أيضاً أن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكنَّ القدر غيب عن الإنسان، وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعاً، واجتناب أسباب ما يراه ضاراً، ثم يرضى بما قدَّر تعالى له.

ولم يكتف عليه السلام بتعبير رؤيا الملك، بل قدَّم لهم نصحه وإرشاده وخبرته وعلمه في شؤون الزراعة والادخار والتموين، وهذا يدل على أن العلوم التي علَّمها تعالى يوسف لم تكن محصورةً في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان عليه السلام يعلم علوماً كثيرة تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين تعلَّمها دون أن يدخل مدرسة وجامعة، علَّمه الله إياها بواسطة الوحي الذي أنزله عليه، كما مر معنا في قوله: ﴿ ذلكما مما علَّمني ربي ﴾.

ولم يبخل عليه السلام بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المتخلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمناً باهظاً وامتيازاتٍ كبيرة، قدَّمها عليه السلام للمحتاجين إليها قبل أن تُطلب منه، قدَّمها لمن أساؤوا إليه وظلموه وأدخلوه السجن بسبب عفته وأمانته، قدَّمها لهم وهو لا يزال في سجنهم قبل أن يخرجوه منه.

المطالبة بالتحقيق

وعرف الملك فضل يوسف عليه السلام وعلمه، فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه ﴿ وقال المَلِك ائْتُوني به ﴾ ولكن يوسف عليه السلام أبىٰ أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فقد رأى أنَّ دخوله السجن عرَّضه للشبهة، ولهذا أصرَّ أن ينفيَها عنه قبل خروجه.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره. ففي المسند والصحيحين عنه ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

وقوله عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» معناه: لا تظنوا أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يشك في قدرته تعالى على إحياء الموتىٰ، فلو كان يشك لكنَّا نحنُ أحق بالشك منه، هذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام وحرصه على تبرئة الأنبياء عليهم السلام من كل سوء.

وأراد ﷺ من قوله: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» مدحَ يوسفَ والثناءَ عليه بسبب صبره وقوته على تحمل آلام السجن، وفي الوقت نفسه أظهر عليه الصلاة والسلام تواضعه وضعفه وافتقاره لله تعالى، وما أراد عليه الصلاة والسلام انتقاد يوسف والطعن عليه، كما فهم صاحب كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف، حتى دعا إلى الإعراض عن الحديث الشريف ورفضه[1].

وحمل القرطبي رحمه الله الأمر على اختلاف وجهات النظر في أمر له أكثر من جهة جيدة فقال: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أنَّ النبي ﷺ أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة[2].

فالمبادرة إلى الخروج عند نبينا ﷺ أولىٰ، لأن فيها مسارعةً إلى التخلص من بلاء السجن، ويمكنه بعدها المطالبة بإظهار براءته وكشف

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢/٩٠٠.
(٢) تفسير القرطبي ٩/٢٠٧.

الحقيقة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يكره تمني البلاء ويقول: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافيةَ فإذا لقيتموهم فاصبروا»[1]، ولا ننس أنه ﷺ نبي الرحمة، وأنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما.

﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ من المَلِك ليخرجَهُ من السجن ﴿ قال ارجِعْ إلى ربِّك فاسْأَلهُ ما بَالُ النِّسوَةِ اللاتي قطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾: أي ما خبرهن في هذا الأمر، واختار عليه السلام واقعة تقطيع الأيدي من بين وقائع القصة لأنها أعجب الوقائع وأغربها، وأكثرها إثارةً للسامع، فيستقصي الحوادث المتصلة بها والأسباب المؤدية إليها، واتبع عليه السلام أسلوب الاستفهام والتلميح تهييجاً للملك لينصرف إلى التحقيق فيما حدث، فلا يغضب على يوسف بسبب رفضه تنفيذ أمره والحضور إليه.

﴿ إنَّ ربي بكيدهِنَّ عليم ﴾ [٥٠]: أي إنَّ الله عليم بمكرهنَّ واحتيالهن.

التحقيق والبراءة

ونجح عليه السلام في تحقيق مراده، وبادر الملك إلى التحقيق وباشره بنفسه، وظهر نتيجة التحقيق براءة يوسف وعفَّته وأمانته وأنه سُجن ظلماً، فأمر بإحضار النسوة وسألهن سؤال المتهم لهن: ﴿ قال ما خَطْبُكُنَّ إذْ رَاوَدْتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه ﴾ وفوجئنَ بالتُّهمة الموجَّهة إليهن، فلم يستطِعنَ إنكارها، رغم ما لهنَّ من مكانةٍ ووجاهةٍ وسلطان، فقد وُجِّهت إليهن من الملك، ولكنهنَّ أعرضن بذكاءٍ ودهاءٍ عن الاعتراف والفضيحة إلى الشهادة ببراءة يوسف ﴿ قُلْنَ حاشَا لله ﴾: أي يتنزَّه الله الذي خلق مثل يوسف عن كل نقصٍ ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ في أي أمر من الأمور.

وهكذا ظهرت براءة يوسف عليه السلام، وأجمع النِّسوة على ذلك،

---

(١) رواه مسلم.

ولم تجد امرأة العزيز بداً من الاعتراف ﴿ قالت امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحق ﴾: أي ظهر وثَبَتَ بعد خفاء ﴿ أنَا رَاوَدْتُه عن نفسه وإنَّه لمن الصادقين ﴾ [٥١]: أي وإنَّ يوسف لمن الصادقين في قوله: ﴿ هي رَاوَدَتْني عن نفسي ﴾.

ولما علم يوسف عليه السلام بظهور براءته وشهادة النسوة على ذلك واعتراف امرأة العزيز قال: ﴿ ذلك ﴾ بقائي في السجن ومطالبتي بالتحقيق ﴿ لِيَعلمَ أنِّي لم أخُنْه بالغيْبِ ﴾: أي لِيَعْلَمَ العزيز أني لم أخنه في غيابه مطلقاً، فما أُدخِلتُ السجنَ إلا ظلماً ﴿ وأنَّ الله لا يَهْدي كَيْدَ الخائنين ﴾ [٥٢] فلو كنتُ خائناً ما نصرني ربي، وأظهر براءتي؛ لأنه سبحانه لا يوفِّق الخائنين ولا يسددُهم، ولا بد أن يأتي يوم يُظهر الله تعالى فيه الحقَّ ويُبطل مكرَ الخائن ويفضحه.

ثم أظهر عليه السلام تواضعَه لله تعالى، وافتقارَه إليه، وفضله عليه، بعصمته عن السوء والفاحشة فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾: أي ما أردت تزكيةَ نفسي، بل أردت إظهارَ ما أنعم اللهُ عليّ من العصمةِ والتوفيق[1]، ﴿ إنَّ النفسَ لأمَّارَةٌ بالسوء ﴾: أي إنها بطبعها مائلة إلى الشهوات ﴿ إلا ما رَحِمَ ربي ﴾ إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس بعصمتها وحفظها ﴿ إنَّ ربي غفورٌ رحيم ﴾ [٥٣] يغفِر ذنوبَ المستغفرين ويسترها، ويرحم عبادَه الصالحين فيعصمُهم ويحفظُهم.

دروس وعبر

وبهذا انتهت محنة يوسف عليه السلام، وانتقل من ظلمة السجن إلى نور الحرية، فعلا نجمُه وذاعَ صيته وانتشرَ خبره، بينما أفلَ نجم العزيز وزوجتِه فلم يعدْ لهما أيُّ ذكر، وعلم الناس فضل العفة والأمانة والصدق، وعلموا أيضاً قبح الخيانة والاحتيال والكذب.

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٠.

ودالتْ دولةُ الخيانة والظلم، فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة، وعاقبته في الدنيا وخيمة، ومهما أملىٰ الله تعالى للظالم فلا بد أن يأخذه، «إنَّ الله لَيُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته»[1] وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَأُمْلي لهم إنَّ كيدي متين﴾[2] فلا يغترّ الظالمون بإملاء الله تعالى لهم، فدعوات المظلومين ترتفع إلى الله تعالى مع زفراتهم ودموعهم، والله جل جلاله سميعٌ لأقوالهم عليم بأحوالهم وهو الحكم العدل.

والأيام دُوَلٌ ﴿وتلكَ الأيَّام نُدَاوِلُها بينَ الناس﴾ الآية[3]، والليالي حبالى، والصبحُ قريبٌ، وهو سبحانه المعزُّ والمذِلُّ، والرافعُ والخافضُ، والمعطي والمانع ﴿قل اللهمَّ مالكَ الملْكِ تُؤْتي الملكَ من تشاءُ وتنزِعُ الملكَ ممَّن تشاء وتعزُّ من تشاء وتُذِل من تشاء بيدِك الخيرُ إنَّك على كل شيءٍ قدير﴾[4].

ورحم الله القائل:

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيب العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دولٌ ... من سرَّه زمنٌ ساءته أزمان

والعاقل من وُعِظ بغيره، والشقيُّ من وُعِظ بنفسه.

ودلَّ ما تقدم أيضاً على أن العاقبة الطيبة للإحسان والتقوى، وأنَّ الله تعالى مع المتقين، وأنَّ من كان مع الله كان الله تعالى معه، وأنه سبحانه لا يتخلَّى عن أنبيائه وأوليائه وأحبابه، وأنَّ وحي الله للأنبياء حق، فهم ينظرون بنور وحي الله تعالى فلا يخطئون ولا يزلون، فهم معصومون بعصمته تعالى ومحفوظون بحفظه ورعايته.

---

(١) متفق عليه.
(٢) القلم: الآية ٤٥.
(٣) آل عمران: الآية ١٤٠.
(٤) آل عمران: الآية ٢٦.

الفصل الثاني

يوسف عليه السلام

في سدة الحكم والسلطان

المكيــن الأميــن

أُعْجِبَ الملك بأمانة يوسف وصدقه وعفته، وأُعجب أيضاً بعلومه وخبرته فأحبه واشتاق لرؤيته ﴿ وقال الملكُ ائْتُوني به أَسْتَخْلِصْهُ لنفسي ﴾: أي أجعله خالصاً لنفسي فلا يشاركني فيه أحد، وهذا يدل على شدة حب الملك له وشوقه إليه.

وكم بين أمر الملك السابق قبل التحقيق ﴿ وقال المَلِكُ ائْتوني به ﴾ وبيّن أمره اللاحق بعده من فرق ﴿ وقال الملك ائْتوني به أَسْتَخْلِصْه لنفسي ﴾ فالعلم وحده لا يكفي لظهور الفضل، فما عرف الملك فضلَ يوسف بعلمه فقط، الذي ظهر له عندما عبر الرؤيا، إنما عَرَف فضله بعد التحقيق وظهور براءته وعفته وصدقه وأمانته عليه السلام، ولا فائدة من علم لا خُلق معه، والإيمان بالله تعالى معدن الأخلاق الكريمة وأساسها ومنبعها.

وازداد تقدير الملك ليوسف وإعجابه به بعد أن رآه وسمع كلامه، فالكلام مرآة المتكلم يُظهر حقيقتَه ويكشف هويتَه، والإنسان مخبوءٌ تحت لسانه فإذا تكلم عرف ﴿ فلما كَلَّمَهُ قال إنَّك اليومَ لَدَيْنا مكينٌ أمين ﴾ [٥٤]: أي أصبح لك عندنا مكانةٌ كبيرة ومنزلةٌ رفيعة، وأصبحت أيضاً مؤتمناً على كل شيء.

فالمكين الأمين أعزُّ الصفات وأكرمها وأرفعها وقد أثنىٰ الله تعالى بهما

على أمين الوحي جبريل عليه السلام بقوله: ﴿ إنَّه لقولُ رسولٍ كريم. ذي قوَّةٍ عند ذي العرشِ مَكين. مُطَاعٍ ثَمَّ أمين ﴾[1].

وقول المَلِك هذا يدلُّ على علوِّ مداركه وحسنِ فراسته، وحبه للأخلاق الكريمة، وإنصافه وعدله، مع أنه من ملوك الهكسوس، وهم البدو الرُّحَّل الذين استولَوا على الحكم في مصر، واستأثروا به دون الأسرة المصرية الحاكمة التي ينتمي إليها الفراعنة، ولهذا ذكره الله تعالى بالملك، ولم يذكره بفرعون، كما في قصة موسىٰ عليه السلام.

طلب العمل والمنصب

وعلو الهمَّة من الإيمان، وما أراد الكريم ابن الكريم أن يعيش في بلاط الملك من غير عمل، كما هو حال كثير من حاشية الملوك والحكام، بل أراد أن يقومَ بعملٍ كبير مفيد، ويتحمَّل مسؤوليته، فرشَّح نفسه لأخطر المناصب وأعلاها، وأكبرها عملاً وجهداً ودأباً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم؛ والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمَاتٍ اقتصادية خانقة تَبِعَةٌ كبيرة، ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم[2]، ومع ذلك رشَّح يوسف عليه السلام نفسه لتحمل تبعة هذه المسؤولية الخطيرة ﴿ قال اجْعَلْني على خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّي حفيظٌ عَليم ﴾ [٥٥]: أي اجعل أمر إدارة خزائنِ المال والطعام في أرض مصر إليَّ؛ فإنّي أمينٌ عليها، خبيرٌ بتدبيرِ شؤونها ووجوه مصالحها.

وصف عليه السلام نفسه بالأمانة والعلم، وهذا يدل على جواز طلب المنصبِ لمن كانَ أهلاً له، ولو كان منصبَ إمارةٍ وولاية عامة، بل يجب عليه أن يطلبَ العمل لنفسه إذا توقَّف عليه إقامة واجب لا يوجد من يقوم به غيره.

---

(١) التكوير: الآيتان ١٩ ـ ٢١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/٢٠٠٥.

وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبدَ الرحمن لا تَسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلت إليها، وإنْ أُعطيتها من غير مسألةٍ أُعِنْت عليها» وارد في غير ذلك[1]، أي: وارد في حال وجود من يقوم بها ويصلح لها، فالأولى حينئذ ألا يطلبها لنفسه، وما طلبها عليه السلام لنفسه إلا لعلمه أنه وحده الذي يستطيع القيام بأعبائها، ولهذا قال: ﴿ إنّي حفيظٌ عليم ﴾ ولم يقل: إني حسيب كريم، ولا قال: جميل مليح، سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال[2].

وأراد عليه السلام بقوله هذا التعريف بنفسه ليوضع في المنصب الذي يناسبها، وهو أمرٌ مطلوب، وما أراد تزكيتَها، وهو أمر مذموم، قال تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقىٰ ﴾[3].

الرجلُ المناسِب في المكانِ المناسب

ووضعُ الإنسان في العمل الذي يناسبه أمر ضروري وجوهري لتقدم المجتمع ونموه، ولذلك دعا الإسلام إلى التخصص والاختصاص، قال تعالى: ﴿ فاسْألوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لَا تعلمون ﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿ ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ به عِلمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكِ كان عنه مسؤولاً ﴾[5].

أمر تعالى في الآية الأولى بالرجوع في كل شأن إلى أصحاب العلم والخبرة فيه، وحذَّر في الآية الثانية الإنسان من التدخل في شؤون ليست من اختصاصه، وقرَّر مسؤوليته عن كل ما يقع نتيجة تصرفاته الفضولية وآرائه

---

(١) انظر: روح المعاني ٥/٥.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٩/٢١٦.
(٣) النجم: الآية ٣٢.
(٤) الأنبياء: الآية ٧.
(٥) الإسراء: الآية ٣٦.

الطفيلية، فالتخصُّصُ هو السبيل الأقوم لعمران الحياة، وهو يستدعي وضع كل إنسان في مكانه الذي يتناسب مع كفاياته العلمية والعملية[1].

وهو من مهمات الحاكم ووليِّ الأمر في المجتمع، فالمحاباة في المناصب ووضعُ الإنسان في غير موضعه المناسب له غشٌّ للأمة وخيانةٌ لها، قال عليه الصلاة والسلام: «ما من عبدٍ يسترعيه الله عز وجل رعيةً، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ رعيَّتَه إلا حرَّم الله تعالى عليه الجنة» وفي رواية: «فلم يُحِطها بنصحه لم يُرِح رائحة الجنة»[2].

وقال أيضاً: «ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»[3].

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يا يزيد إنَّ لك قرابةً عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك، بعدما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباةً، فعليه لعنةُ الله، لا يَقبلُ الله منه صَرْفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم»[4].

ودلَّ قوله عليه السلام للملك: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ على جواز قبول العمل والوظيفة من الحاكم الكافر، وخاصة إذا كان في العمل مصلحة للمسلمين ورعاية لشؤونهم.

الحاكم الصالح

وجَدَ الملك في يوسف عليه السلام الأمانة والخبرة، فوافق على طلبه

---

(١) انظر: حياتنا والموعد المجهول.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الحاكم وصححه.

وسَلَّمه مسؤوليةَ إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها، وأصبح عليه السلام الوزير الأول في مصر وعزيزها وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد الملك، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم، فقد كان نبياً وحاكماً، وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة والعبادة فقط، ويحاولون عزل الدين عن الشؤون المتعلقة بالحكم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك من الأمور العامة.

قال تعالى يبيِّن فضله على نبيِّه يوسف ونعمته عليه ﴿ وكذلك مَكَّنَّا ليوسُف في الأرض ﴾: أي كما جعلنا له مكانةً عاليةً في قلب الملك جعلنا له مكانةً في أرض مصر كلها، ولا بد أنه عليه السلام استفاد من هذا التمكين في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونشر عقيدة التوحيد بين المصريين، فقد جعله الله رسولاً إليهم كما جعله حاكماً عليهم.

ونجح عليه السلام في نشر التوحيد في أوساط العامة من الضعفاء والفقراء، أما كبار الأغنياء والمترفين الذين كانوا يشكِّلون حاشية وبطانة الأسرة الفرعونية فلم يتقبلوا دعوته، دلَّ على ذلك ما حكاه الله تعالى من كلام مؤمن آل فرعون وهو يخاطب فرعون وحاشيته في زمن موسى عليه السلام: ﴿ وَلقدْ جَاءَكم يوسفُ من قبلُ بالبيِّنات فما زِلتم في شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يَبْعَثَ الله من بعده رسولاً كذِلك يُضلُّ الله من هو مُسْرِفٌ مُرْتَاب ﴾[1].

﴿ يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاء ﴾: أي ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا يدل على قوة سلطانه عليه السلام، وتمكنه في جميع مدن وقرى مصر، وكل ذلك من فضله تعالى ورحمته ﴿ نصيبُ برحمتِنَا من نشاء ﴾ بمقتضى حكمته تعالى وعلمه ﴿ ولا نُضِيعُ أجْرَ المحسنين ﴾ [٥٦].

---

(١) غافر: الآية ٣٤.

وكما أحسن عليه السلام في الضرَّاء والمحنة بصبره وتقواه، أحسن عليه السلام أيضاً في السرَّاء والنعمة، فأطاع الله تعالى في الأمَّةِ التي ولَّاه الله أمرَها في سنوات السَّعَةِ والرَّخاء، وفي سنوات الجَدْبِ والضرَّاء.

وما أشدَّ حاجةَ الأمم والشعوبِ إلى الحاكم الصالح الذي يخشى الله تعالى ويتّقيه، فلا يغرُّه سلطان؛ لأنه يرى سلطانَ الله تعالى أعظم وأجل من سلطانه، ولا يستبدُّ به طمع؛ لأنه يرى أن ما عند الله تعالى خير وأبقىٰ من كنوز الدنيا الزائلة، فقلبُه متوجِّه إلى الآخرة التي قال تعالى عنها: ﴿ ولأَجْرُ الآخِرةِ خيرٌ للذين آمَنوا وكانوا يتَّقون ﴾ [٥٧].

المعجـــزة الاقتصـاديـــة

وكان عليه السلام في حكمه حفيظاً عليماً كما وصف نفسه، استغل سنوات الخِصْب والرَّخاء أحسنَ استغلال، فوجَّه المصريين إلى الاستفادة منها ببذل أقصى الجهد، واستصلح كثيراً من الأراضي البور فأحياها وأوصَل إليها الماء من النِّيل بواسطةِ شَبكةٍ كبيرة من التُّرَع والقَنَوات، ورسم لها نظاماً دقيقاً مُحْكماً للريِّ والصَّرف، ولايزال هذا النظام قائماً حتى الآن في كثير من الأراضي المصرية، كما لا تزال كثير من التُّرع والقنوات تُنسب إليه عليه السلام وتسمىٰ باسمه.

ولم يسخِّر عليه السلام طاقاتِ الأمة لبناء القصور والقبور، كما فعل الفراعنة، والذين لا زالت آثارهم تدل على طغيانهم واستبدادهم وظلمهم.

وأنشأ عليه السلام أيضاً المخازنَ الكبيرة لخزن فائض المحاصيل الزراعية، وتمكَّن بمعونة الله له من تحقيق معجزة الخَزْن والِّادخار للمحاصيل الزراعية إلى مدى أربعة عشر سنة، والتي تعجز عن مثلها أكبر الدول في عصرنا الحاضر، عصر التقنية والتكنلوجيا، وما أكثر ما نقرأ في المجلات والصحف عن التلف الذي يصيب المحاصيل الزراعية المدَّخرة بسبب سوء التخزين والادخار.

ولما انتهت سنوات الخِصْب والرَّخاء، وأقبلت سنوات القحط والجوع والجفاف، التي عمَّت المنطقة كلها، مصر وما حولها من البلاد، وضع عليه السلام نظاماً لتوزيع المُؤَن والطعام على الفقراء والمحتاجين من داخل مصر وخارجها، وأشرف بنفسه عليه السلام على التوزيع، وكان يباشره بنفسه أحياناً كما سيأتي معنا، دون تمييز بين المصريين وغيرهم من المحتاجين.

فالإيمان بالله تعالى ينمّي مشاعر الخير في نفس الإنسان، ويدفعه إلى تقديم المعونة والمساعدة إلى كل الناس، فلا يميِّز بينهم، كما يفعل الآن الماديون الغربيون عندما يضطرون لتقديم بعض المساعدات إلى غيرهم، تراهم يساومون الجائعين والمُعْدَمين في إفريقيا وغيرها، ليتخلوا عن دينهم وعقيدتهم مقابل ما يقدمونه لهم لسد جوعهم ودفع خَلَّتهم.

كان نبيُّ الله يوسف عليه السلام مثالاً رفيعاً للحاكم الصالح والعالم المؤمن المتواضع، كان عليه السلام عالماً بشؤون الزراعة، ومهندساً في الري، وخبيراً في الادّخار والتوزيع، وكل ما كان عنده من علوم آتاه الله تعالى إياها بفضله ورحمته دون معلم ولا كتاب ﴿ ذلك ممَّا علَّمني ربي ﴾.

فالحقيقة لا تُعرف كلها بواسطة حواس الإنسان المادية، ثمة مصدر آخر للحقيقة أعلى وأرفع وأعظم، وهو وحي الله تعالى المنزل على أنبيائه.

التـوزيـع

ومضت سنوات الخير والرخاء، وكانت بالنسبة ليوسف عليه السلام، سنوات العَمَل والجُهد المتواصل بالليل والنهار استعداداً وتحضيراً لسنوات القحط والجفـاف، ألا يقرأ الكسـالىٰ المتواكلون المنتشـرون في العالم الإسلامي سورةَ يوسف عليه السلام؟!.

وجاءت سنواتُ القحطِ والجفافِ، وتحوَّلت جهود النبي الكريم إلى تنظيم توزيع المدَّخرات، لا على المحتاجينَ الجائعينَ فقط، وإنما توزيع

المدَّخرات على سنوات الجفاف السبع، لتغطية حاجات الاستهلاك فيها كلها، فقد رأىٰ عليه السلام بعين النبوة من خلال رؤيا الملك البعدَ الزمني لامتداد أزمة الجفاف، فلا بد إذاً من رسم خطة للتوزيع كما فعل في خطة الإنتاج والادّخار، تغطي حاجات السنوات السبع، وتطبق بدقةٍ وحزم وعزم.

خطة يستطيع المحتاج بواسطتها أن يأخذ حاجته، دون أن يقف ساعات كثيرة في طوابير طويلة على أبواب مراكز التوزيع، كما هو الحال في كثير من المجتمعات في العصر الحاضر، العصر الذي سخَّر فيه الإنسانُ الآلةَ واستفاد منها في هذا المجال في توفير الجهد والوقت.

ورأىٰ عليه السلام ألَّا يقدِّم الطعامَ بدون مقابل، فإنَّ ذلك يشجع الناس على سرعة استهلاكه وتبديده، ولهذا وجد من الحكمة أن يتقاضىٰ ثمن الطعام من القادرين على دفع ثمنه، وشمل القحط والجفاف مصر وما حولها من البلاد، وتسامَعَ الناس في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار حاكمها الصالح، فشدُّوا إليه الرِّحال من كل حَدَب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف.

﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يوسُف ﴾ نسبتهم الآية إلى يوسف وعرَّفتهم به، فلولاه لكانوا نَكِرات لا يذكرهُم أحد ولا يعرفهم، جاؤوا بعد مرورِ سنواتٍ طويلةٍ على جريمتهم التي ارتكبوها بحقِّ أخيهم وأبيهم.

ألجأتهم المجاعة والفاقة فجاؤوا يَمْتارون لأنفسهم ولأهليهم ولأبيهم الشيخ الكبير، الذي لم ينسَ ولده يوسف، ولا يزال حزيناً على فراقه، ويمنِّي النفسَ بلقائه.

ولا بد أن نتساءل هنا، لماذا لم يبادر يوسف إلى الاتصال بأبيه بعد خروجه من السجن وتمكنه من حكم مصر، وهو يعلم شدَّة حزن أبيه على

فراقه؟ هل شغله تدبير شؤون الحكم وخطط الإنتاج والادّخار عن أبيه وأمه وأخيه وأهله وذويـه؟ أما كان يستطيع أن يرسلَ إلى أبيه رسولاً أو رسالة يخبره بمكانه، ويحيطه علماً بأحواله، فينهي بذلك آلامه وأحزانه؟!.

لا شك أنه عليه السلام كان يستطيع أن يفعل ذلك، ولعله لم يفعله لأنه نبيٌّ كريم، ورسول أمين، لا يتحرَّك ولا يسكن ألا بأمر الله تعالى ومشيئته، فعواطفُه نحو أبيه وأمِّه وأهلِه وراء رسالته ونبوته.

وكذلك حال أبيه يعقوب عليه السلام، فهو نبيٌّ كريم أيضاً مكلَّف برسالة حملها إلى القوم الذين كان مقيماً بينهم، ولا يستطيع مفارقتهم ومغادرةَ موطنِ رسالته حتى يأذن الله تعالىٰ له بذلك، ولهذا لم يهاجر نبيُّنا ﷺ إلى الحبشة عندما هاجر أصحابه إليها، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة حتى أذن الله تعالىٰ له بالهجرة، مع أنَّ أكثر أصحابه سبقوه بالهجرة فشأنُ النبيِّ الرسول يختلف عن عامة الناس، وما يمكن أن يَرِدَ حول عامة الناس من تساؤل لا يَرِدُ في حق النبي الرسول يوسف عليه السلام.

﴿فَدَخَلُوا عَلَيه﴾ وهذا يدل على أنَّ يوسف عليه السلام كان يقيم في مركز التوزيع ويشرف عليه بنفسه، أو أنه كان يتوقع مجيئهم فلما جاؤوا أمر أن يُدخلوا عليه، ولكن قوله تعالى: ﴿ فَعَرَفَهُم ﴾ يرجِّح الرأي الأول، إذ عرف أنهم إخوته بعد دخولهم عليه.

﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرونَ ﴾ [٥٨] وهم لم يعرفوا أنه أخوهم يوسف، فقد كان صغيراً عندما ألقوه في الجبِّ، وملامحُ الصغير تتغيَّر بمرور السنين أكثر من الكبير، ويمكن أن تكون معرفتُه لهم حَصَلت بعد أن سألهم وحقَّق معهم.

فلا بد أنه سألهم عن أسمائهم وبلادهم وأولادهم وعبيدهم وخدمهم ليعطيهم على حسب حاجتهم، ولا بد أنهم أخبروه عن أبيهم وأخيهم اللذين لم يحضرا معهم، وبيَّنوا له سبب تخلُّف أخيهم لشدة محبة أبيه له وخوفه عليه.

﴿ وَلَما جَهَّزَهم بِجَهَازِهم ﴾: أي أعطاهم ما جاؤوا لأجله، وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد.

﴿ قال ائْتُوني بأخٍ لكم من أَبيكُمْ ﴾ تظاهر بأنه يريد التأكُّد من صدقهم فطلب منهم أن يحضروا أخاهم معهم في المرة القادمة، ثم رغَّبهم بكرمه وحسن ضيافته ليعودوا إليه فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفي الكَيْلَ ﴾: أي أعطيه لمستحقيه كاملاً غيرَ ناقص ﴿ وأَنَا خَيْرُ المُنْزِلين ﴾ [٥٩] للضيف والمُكرمينَ له.

ثم بعد الترغيب توعَّدهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أخاهم معهم ﴿ فإنْ لَمْ تأْتُوني به فَلَا كَيْلَ لَكُم عِنْدي وَلَا تَقْرَبُون ﴾ [٦٠] بلادي.

﴿ قالوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾: أي سنجتهدُ في طلبِهِ من أبيه، ثم أكّدوا كلامهم قائلين: ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلون ﴾ [٦١].

وكي يضمن عليه السلام رجوعَهم، أمر بعض أتباعه ومعاونيه أن يَرُدُّوا إليهم ثمنَ الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمَه وإحسانَه فيرجعوا إليه ﴿ وَقَال لفتيانِهِ اجْعَلوا بِضَاعَتَهم فِي رِحَالهم ﴾ في أوعيتهم ﴿ لَعلَّهم يَعرِفونَها إذا انْقَلبوا إلى أهلهم ﴾ إذا وَصَلوا إلى أهلهم ﴿ لَعَلَّهم يَرْجِعون ﴾ [٦٢].

رسالة رمزية إلى يعقوب

وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حَدَث لهم، وبادَرُوا إلى مطالبته أن يرسِل أخاهم معهم في المرة القادمة ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يَا أَبَانَا مُنِع منَّا الكَيْلُ ﴾ في المستقبل، جعلوا التهديد بالحرمان من الطعام توطئةً للمطالبة بإرسال أخيهم معهم.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نكتَلْ﴾: أي نرفع المانع ونأخذ ما نحتاج من الطعام ﴿ وإنَّا له لحافظون ﴾ [٦٣].

وَذَكَّرَه قولُهم هذا بقولهم السابق عندما سألوه أن يرسل يوسف معهم ﴿ أَرْسِلْه مَعَنا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحافِظون ﴾، ولا بد أن دموعاً سالت من عينيه المقرَّحَتَيْن من كثرةِ البكاء على فراق يوسف حتى انطفأ نورُهما.

وانتظر عليه السلام حتى هدأت نفسه وتوقفت دموعه ﴿ قال هَلْ آمَنُكُم عَلَيهِ إلا كما أمِنْتُكُم على أخيه مِنْ قبل ﴾: أي كيف آمَنُكم عليه، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وقد ذكرتم مثل هذه الكلمات التي تذكرونها الآن ﴿ وإنَّا لَهُ لَحافظون ﴾ فهل حفظتم يوسف؟.

﴿ فاللهُ خيرٌ حَافِظاً ﴾ فحفظُ الله خيرٌ من حفظهم، والتفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه ﴿ وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحمين ﴾ [٦٤].

ونستدلُّ من كلمات يعقوب عليه السلام أنه لم يرفض طلبهم، فثمَّة هاجسٌ يهجس في قلبه أنَّ وراء هذا الطلب سراً، وأنه ربما له صلة بولده الحبيب يوسف، فضلاً عن القحط الشديد الذي اضطره إلى إرساله معهم.

وبعد أن فتحوا أوعيتَهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أبَاهم بإرسال أخيهم معهم محتجين بما وجدوا في أوعيتهم ﴿ وَلَما فَتَحوا مَتَاعَهم وَجَدوا بِضَاعَتَهُم رُدَّت إليهم قالوا يَا أبانَا ما نَبْغي ﴾: أي ماذا نطلبُ من هذا الرجل عزيز مصر بعد أنْ أحسن إلينا كلَّ هذا الإحسان؟.

﴿ هذه بضاعتُنَا رُدَّت إلينا ﴾ تفضُّلاً منه وكرماً، فينبغي أن نقابل كرَمَه هذا وإحسانَه بالاستجابة لطلبه.

﴿ ونَمِيرُ أهْلَنا ﴾: أي نحضر لهم الميرة، وهي الطعام الذي يجلب من بلدٍ إلى بلد.

﴿ ونحفظُ أخَانا ﴾ من المخاطر والمكاره، ﴿ ونزدَادُ كيلَ بعير ﴾ حمل

بعير على أحمالنا، وكان يوسف يعطي كل إنسان حمل بعير ﴿ ذلك ﴾: أي الذي أحضرناه من الميرة ﴿ كَيْلٌ يَسير ﴾ [٦٥] لا يكفينا فلا بد لنا أن نعود للميرة مرة أخرى.

ومن طبيعة الحاسد أنه يكون طمَّاعاً شَرِهاً، ولقد أصاب يوسف عليه السلام الهدف تماماً، لأنه كان يعرف حقيقة إخوته، وما تنطوي عليه نفوسهم من طَمَعٍ وشَرَه، ولهذا أطْمَعهم ومنَّاهم، وردَّ عليهم ثمن طعامهم ليأتوه بأخيهم، ولا عَجَبَ فيما نراه من جشع خَلَفهم من اليهود وطمعهم وحسدهم.

ولا بد أن يعقوب عليه السلام تساءل في نفسه عن سر ما فعله عزيز مصر مع أولاده، لماذا أكرمهم واحتفىٰ بهم ورد عليهم ثمن طعامهم بهذا الأسلوب اللطيف، وطلب إحضارَ أخيهم معهم في المرة الثانية وعيَّنه بقوله: ﴿ أخٌ لكم من أبيكم ﴾؟ والأنبياء عليهم السلام أفطن الناس وأذكاهم، ونفوسهم حسَّاسةٌ شفَّافة شديدة التأثر سريعة الفهم.

ترىٰ هل كان ما فعله يوسف بإخوته ومطالبته بأخيه رسالة رمزية منه لأبيه[1] أخبره فيها أنه في مصر وأن وقت اللقاء أصبح قريباً، وسيأتي معنا في قول يعقوب ﴿ يَا بَنيَّ اذْهبوا فتحسَّسُوا من يوسُف وأخيه ﴾ ما يشير إلى ذلك.

التوكل والحذر

وافق أخيراً نبيُّ الله يعقوبُ على إرسال ولده الشقيق الأصغر ليوسف مع إخوته، بعد أن أخذ منهم ميثاقاً مؤكَّداً بالأيمان المغلَّظة على حمايته وحفظه ﴿ قال لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُم حتَّى تُؤْتُونِ موثقاً من الله لَتَأْتُنَّني به إلاَّ أن يُحَاطَ بكم ﴾: أي إلا أن تُغلَبوا وتهلكوا، فلا تقدروا على رده، وأصله من إحاطة العدو، فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالباً[2].

---

(١) انظر: مؤتمر سورة يوسف ١٠٠٣/٢.

(٢) انظر: روح المعاني ١٤/٥.

﴿ فَلما آتَوْهُ مَوْثِقَهُم قال اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾ [٦٦] رقيبٌ وحسيب، وهو أقصى ما يستطيع يعقوب أن يفعله لولده.

ولم ينسَ عليه السلام أن يزوِّد أولاده بوصاياه عندما أرادوا السفر ﴿ وقال يَا بَنِيَّ لا تَدْخلوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ كأنه عليه السلام خشي عليهم من أعين الحُسَّاد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأبَّهة والجمال، فحذَّرهم ألا يدخلوا جميعاً من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع وأوصاهم أن يدخلوا أفراداً من أبواب متفرقة.

العين والحسد

فَلِعَيْن الحاسد تأثيرٌ سَلْبيٌّ ضار بالمحسود بتقدير الله تعالى، أثبتته النصوص القطعية وشواهد الواقع الكثيرة المحسوسة، قال الله تعالى: ﴿ وإنْ يكادُ الذين كَفَروا لَيُزْلِقُونَك بأبْصَارِهم لما سمعوا الذكرَ ويقولونَ إنَّه لمجنون ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «العَيْنُ حَقٌّ»[٢].

وقال أيضاً: «العينُ حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسِلْتُم فاغسلوا»[٣].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان يُؤمر العَائن فيتوضأ، ويغسل منه المعين)[٤].

وقالت أيضاً: (كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رَقَاه جبريل، قال: «بسمِ

---

(١) القلم: الآية ٥١.
(٢) متفق عليه.
(٣) صحيح مسلم.
(٤) رواه أبو داود وأحمد.

الله يبريك من كل داءٍ يشفيك، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد، ومن شر كلِّ ذي عين»)[1].

فثمةَ جانب خفيٌّ في الإنسان يتأثر ويؤثر، دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدل على وجوده، كما مر معنا، فهي تدل على تأثره بما يلقى إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكده، ويجعله حقيقةً ملموسة، والعين الحاسدة تدل أيضاً على إمكانية تأثير الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره.

ولم يستطع الإنسان أن يعرف شيئاً عن هذا الجانب الخفي في كيانه، والذي يشكل الجزء الهام، أو الأهم، في تكوينه، وهو الذي قال عنه سبحانه: ﴿ وَيَسْألونكَ عن الرُّوح قل الرُّوحُ من أمْرِ ربي وما أوتيتُم من العلم إلا قليلاً ﴾[2].

وأرواح الناس أنواع، بعضها يغلب عليه الخير والصلاح، وهي الأرواح الطيبة، وبعضها يغلب عليه الشرُّ والفساد، وهي الأرواح الخبيثة، المؤذية الحاسدة.

وبعد أن أوصى يعقوب أولادَه استدرك قائلاً: ﴿ وَمَا أُغْني عنكم من الله من شيء ﴾ فالحذرُ لا يدفع القدر، وما أوصاهم بالحذر، إلا من قبيل الأخذِ بالأسباب الظاهرة للسلامةِ والوقاية، وهو أمر مطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿ وخُذوا حِذْرَكُم ﴾ الآية[3]، وقال أيضاً: ﴿ ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَة ﴾ الآية[4].

﴿ إنِ الحُكم ﴾ القَدَري والشَّرعي ﴿ إلاَّ لله عليهِ توكَّلت وعَلَيه فَلْيَتَوكَّل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) الإسراء: الآية ٨٥.
(٣) النساء: الآية ١٠٢.
(٤) البقرة: الآية ١٩٥.

المتوكِّلون ﴾ [٦٧]، فالتوكُّل لا يمنع من الأخذ بأسباب الوقاية والحذر.

لقاء الشقيقين

وتفرَّق إخوة يوسف على الأبواب تنفيذاً لوصية أبيهم ﴿ وَلَمَّا دخلوا من حيثُ أمَرَهُم أبوهُم مَا كانَ ﴾ ذلك الدخول ﴿ يُغني عَنْهُم مِنَ الله من شيء ﴾: أي يدفع عنهم شيئاً قدَّره تعالى عليهم.

ويعقوب عليه السلام يعلم ذلك، وما أوصاهم بالدخول متفرقين ﴿ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قَضَاها ﴾: أي أظهرها بوصيته لهم، وهي خوفه وشفقته عليهم، وما صدر عن مُجرَّد عاطفة فقط، بل عن علم بما يجرُّ حسد الحاسدين على المحسود من ضرر بتقدير الله تعالى.

﴿ وإنَّه لذو عِلمٍ لما علَّمناه ﴾ من أحوال النفوس وطبائع الأرواح، فالوحي مصدر من مصادر العلم، لا يكون إلا للأنبياء عليهم السلام ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [٦٨] هذه الحقائق المستورة لأنهم محجوبون عنها.

ويشير قوله تعالى: ﴿ إلا حاجةً في نفسِ يَعْقُوبَ قَضَاها ﴾ إلى أنه عليه السلام كان يتوقع حدوثَ شيءٍ ما لأولاده، ولهذا ساوره القلق عليهم، وأوصاهم وحذَّرهم، فتصرفاتُ عزيز مصر معهم غيرُ عادية، ولعلها كما قلنا رسالة رمزية من يوسف لأبيه عليهما السلام.

وبادر يوسف عليه السلام إلى ضمِّ شقيقه الأصغر إليه، وتعريفه بنفسه، فعل ذلك بِنَجْوَة عن إخوته ﴿ وَلَمَّا دخلوا على يوسُفَ آوى إليه أخاه قال إني أنا أخُوك فلا تَبْتَئِس بما كانوا يعملون ﴾ [٦٩]: أي لا تحزن بما فعلوه معنا، فقد أحسنَ الله إلينا وجمعَ بيننا، وأوصاه أن يكتم الأمر عن إخوته.

ورسم عليه السلام خطة لإبقاء شقيقه عنده، وشرع في تنفيذها.

الاتهام بالسرقة

﴿ فلمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِم جَعَل السِّقايَةَ في رَحْلِ أخيه ﴾: أي في وعاء شقيقه، والسِّقاية الإناء الذي يشرب به الملك، جُعلت كيلاً يُكال به الطعام.

ولما افتقدها الجنود وقف أحدهم ينادي ﴿ ثمَّ أذَّن مؤذِّنٌ أيَّتُها العيرُ إنَّكم لسارِقون ﴾ [٧٠] يا أصحاب العير، وهي الإبل التي عليها الأحمال.

وفوجىء إخوة يوسف بهذا الاتهام، فاهتموا له وانزعجوا منه ﴿ قالوا وأقْبَلوا عليهم ﴾: أي قال إخوة يوسف وهم مقبلون على الجنودِ ﴿ ماذا تَفْقِدون ﴾ [٧١].

﴿ قالوا نَفْقِدُ صُوَاع الملك ﴾ صاع الملك ومكياله ﴿ وَلِمَنْ جاء به حمل بَعير ﴾ من الطعام جائزة له ﴿ وأنا به زعيم ﴾ [٧٢] كفيل ضامن، أؤدّيه إليه، وهي من كلام المنادي.

﴿ قالوا ﴾: أي إخوة يوسف ﴿ تاللهِ لَقد علمتُم ما جئنا لنفسِدَ في الأرض﴾ بالسرقة، أي والله ما جئنا لنشرِ الفسادِ في الأرض بالسرقة، فهي من أعظم أنواع الفساد في الأرض، وتؤدي إلى إشاعة الخوف والاضطراب في المجتمع، ولهذا شرع الإسلام قطعَ يد السارق حَسْماً لهذا الفساد ودفعاً له.

﴿ وما كنَّا سَارِقين ﴾ [٧٣] وكذبوا في دعواهم هذه، لأنهم احتالوا على أبيهم، فنزعوا يوسف منه، وألقوه في الجب، كما مر معنا.

﴿ قالوا ﴾: أي الجنود ﴿ فَمَا جَزَاؤُه إنْ كُنتم كاذِبين ﴾ [٧٤] ﴿ قالوا ﴾ إخوةُ يوسف ﴿ جَزَاؤه من وُجِد في رَحْله فهو جزاؤه ﴾ بأن يُسْتَرقَّ ويصبحَ عبداً للمسروق منه، وكان هذا جزاء السارق في شريعة يعقوب عليه السلام،

ولهذا قالوا ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ [٧٥]: أي هذا جزاء السارقين في شريعتنا.

ولما شرع المفتِّش بالبحث عن المسروق في الأوعية، ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وِعاء أخيه ﴾: أي شقيق يوسف.

وقد يقول قائل: هذا الكيد والاحتيال لا يليق بحال يـوسف عليه السلام؟.

وأقول: لقد فعل يوسف ما فعل بأمر الله تعالى ووحيه، ولهذا قال سبحانه: ﴿ كذلك كِدْنا ليوسف ﴾: أي أوْحَينا إليه وعلَّمناه إياه[1].

﴿ ما كان لِيَأْخُذَ أخاه في دينِ الملك ﴾: أي ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه في شرع ملك مصر، لأنَّ شرعه معاقبةُ السارق بغير استرقاقه، ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فما أخذه إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه فالأمر منوط بمشيئته سبحانه.

﴿ نرفعُ درجاتٍ من نشاء ﴾ بالعلم الذي نوحيه إليه ونخصه بـه، كيوسف عليه السلام، فقد أعزَّه الله تعالى، ورفعَ مقامه بالعلوم، التي علَّمه سبحانه إياها، في الدين والعبادة وتعبير الرؤيا والزراعة والادّخار والتوزيع، قال تعالى: ﴿ يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكم والذين أوتُوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعملونَ خبير ﴾[2].

﴿ وفوقَ كل ذي علم عليم ﴾ [٧٦]: أي وفوق كل ذي علم من الخلق عليم، وهو الخالق العظيم، الذي وسِع علمُه كل شيء، فعلى العالِمِ ألاَّ يغترَّ بعلمه، ويتواضع للناس ويسخِّر علمَه لفائدتهم، كما فعل يوسف عليه

---

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي ٣/٤٣٧.
(٢) المجادلة: الآية ١١.

السلام، وعليه أيضاً أن يسعى دائماً في طلب العلم، والاستزادة منه، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾[1].

وما فعله يوسف عليه السلام يدل على جواز الاحتيال لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، قال ﷺ: «إنَّ الحَرب خدعة»[2]، وقال أيضاً لنُعيم بن مسعود الغَطَفاني عندما جاءه مُسْلِماً في أثناء غزوة الخندق: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خَدْعة»[3]، وكان ﷺ حينئذ محصوراً مع أصحابه في المدينة المنورة، من قبل القبائل المشركة المتحزِّبة على المسلمين، وقد انضمَّ إليهم يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، واحتال نُعيم بن مسعود رضي الله عنه على الأحزاب ومن كان معهم من اليهود حتى تمكَّن من إشاعة الفرقة بينهم وتوهين صفهم وفشلهم.

واحتال أيضاً بعض الصحابة على كعب بن الأشرف أحد كبار يهود المدينة، حتى أنزلوه من حِصْنه وقتلوه، وكفُّوا أذاه وشرَّه عن المسلمين.

الحقد القديم

وبدل أن يسعى إخوة يوسف لإثبات براءة أخيهم ﴿ قالوا إن يَسْرِق فقد سَرَقَ أخٌ له من قبل ﴾: أي لا عجب أن يسرق، فقد سرق أخ له من قبل، وأرادوا يوسُف عليه السلام، وبهذا ثبَّتوا التهمة على أخيهم فما أغباهم! وما أشدَّ حقدهم على يوسف عليه السلام! فلا زالت قلوبهم بعد كل هذه السنين تحقدُ على يوسف حتى اتهموه وافتروا عليه.

وغضب عليه السلام عندما سمع إخوته يتهمونه بالسرقة ويفترون عليه، وحُقَّ له أن يغضب، ولو لم يكن نبياً كريماً رحيماً لبطش بهم، ولكنه كظم

---

(١) طه: الآية ١١٤.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٣٧.

غيظه وأخفى انفعاله ﴿ فأَسَرَّها يوسُف في نفسه ولم يُبْدها لهم ﴾ ولم يظهر الكلمة التي حاكت في نفسه، وهي: ﴿ قال أنتم شرٌّ مكاناً واللهُ أعلم بما تصفون ﴾ [٧٧]: أي أنتم شرٌّ منزلةً عند الله، والله أعلم بحقيقة ما تقولون.

وبعد أن اتهموه وافتروا عليه أخذوا يَتَمَسْكنون له، ويتذللون ضارعين مستعطفين، إنها صفات خلفهم من اليهود لم تتغيَّر مع مرور الزمان ﴿ قالوا يا أيُّها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾ في السنِّ والقدر ﴿ فَخُذْ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ [٧٨].

ورفض عليه السلام استعطافَهم ورجاءَهم، وسَفَّه اقتراحهم، فهو أمرٌ يخالف دين الله تعالى وشرعه، فلا يجوز ترك الجاني وأخذ البريء ﴿ قال مَعَاذَ اللهِ أن نأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنا مَتَاعنا عِنده ﴾ ولم يقل: مَنْ سَرَقَنا، ليكون كلامه موافقاً للحقيقة ﴿ إنا إذن لظالمون ﴾ [٧٩] لأننا نخالف الحكم الذي صدر عنكم عندما قلتم ﴿ جزاؤه مَنْ وُجِد في رَحْلِه فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾.

والجدير بالذكر هنا أن الإسلام حرَّم الشفاعة لمنع إقامة حدٍّ من حدود الله تعالى، كحد السرقة وحد الزنى بعد رفعه إلى الحاكم، فعندما كلَّم أسامة ابن زيد رسولَ الله ﷺ في شأن المرأة المخزوميّة التي سرقت، قال رسول الله ﷺ: «يا أسامة أتشفعُ في حد من حدودِ الله»، ثم قام فاختطب، فقال: «إنما هَلَك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريف تركوه، وإذا سَرَق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيْمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

وحرَّم أيضاً معاقبة غير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسَّجْن والقصاص، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ الآية[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) الإسراء: الآية ١٦.

تأنيب الضمير

﴿ فلما اسْتَيْأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ فلما يئسوا من إجابة يوسف لمطلبهم، اعتزلوا وخَلَوا إلى بعضهم يتحادثون سراً ويتشاورون، فكأنهم يريدون الاعتراف بأمر يخفونه ﴿ قال كبيرُهم ألَمْ تعلموا أنَّ أباكم قَدْ أخَذَ عليكم مَوْثِقاً من الله ﴾ وهو الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿ قال لَنْ أُرْسِلَهُ معكم حتى تُؤْتُونِ موثقاً من الله لتأتُنّني به إلا أن يحاط بكم ﴾.

﴿ ومن قَبْلُ ما فَرَّطْتُم في يوسُفَ ﴾: أي وتعلمون أيضاً تقصيركم في حق يوسف وما فعلتموه به ﴿ فلنْ أبرَحَ الأَرْضَ ﴾ فلن أرجع معكم وأغادر أرض مصر ﴿ حتى يأذَنَ لي أبي ﴾ في العودة ﴿ أو يَحْكُمَ اللهُ لي ﴾ بما قضاه وقدَّر عليّ ﴿ وهو خيرُ الحَاكِمينَ ﴾ [٨٠] لا يُردُّ قضاؤه ولا معقِّب على حكمه.

وهكذا استيقظ ضمير أحدهم بعد كل هذه السنين والأحداث، واعترف بجريمتهم في حق يوسف وأبيه، فهو لا يستطيع مواجهة أبيه بعد أن استيقظ ضميره، ورأى بشاعة الجريمة التي اشترك فيها مع إخوته.

واحد من عشرة فقط استيقظ ضميرُه بعد أكثر من عشرين سنة، وهو يرى أباه في لوعته وحزنه وألمه، أين كان ضميره في خلال هذه السنوات الطويلة؟! لماذا لم يهتز ضميره عندما امتدت أيديهم إلى يوسف وألقته في الجب، وهو يسمع صراخه وتوسله؟!.

أربعون سنة مرَّت على مأساة فلسطين، ولا يزال الفلسطينيون المشرَّدون عن بيوتهم يعيشون تحت الخيام، تلاحقهم نيران الصواريخ والطائرات والمذابح، وضمير اليهود لم يستيقظ بعد، فمتى؟.

وتابع كبيرهم كلامه قائلاً: ﴿ ارْجِعُوا إلى أبيكم فقُولوا يا أَبَانَا إنَّ ابنَكَ سَرَقَ ﴾ ابنك السارق، ولا علاقة لنا به، لم يقولوا: «إنَّ أخانا سرق» مما يدلُ على وقاحتهم، وسوء أدبهم مع أبيهم.

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بما عَلِمنَا ﴾ وهو غير صحيح، فشهادتهم قائمة على الظن لا على العلم، لأنَّ وجود الصُّواع في رَحْلِه لا يدل دلالة قطعيةً على أنه السارق، فمن جعل بضاعتهم في رحالهم في المرة الأولى، يستطيع أن يضع الصُّواع في رَحْل أخيهم.

﴿ وما كنَّا للغَيْبِ حَافظين ﴾ [٨١]: أي ما كنَّا نعلم ـ حين أعطيناك الميثاق ـ بالمستقبل الغائب عنا.

ولما كانوا يعلمون أنَّ أباهم لا يثقُ بهم بسبب ما رآه من كذبهم عندما جاؤوه عشاءً يبكون، وأخبروه بأن الذئب قد أكل يوسف، طلبوا منه أن يتحقَّق بنفسه من صدقهم، فقالوا: ﴿ واسْألِ القريةَ التي كنَّا فيها ﴾: أي اسأل أهلَ البلد التي كنَّا فيها ﴿ والعيرَ التي أقبلنا فيها ﴾ وأصحاب القافلة التي رجعنا معها ﴿ وإنَّا لصادقون ﴾ [٨٢].

والكذاب لا يُصَدَّق ولو كان صادقاً، ولهذا لم يصدقهم عليه السلام، وقال لهم مثل ما قال لهم عندما جاؤوه عشاءً يبكون ﴿ قال بَلْ سَوَّلتْ لَكُم أنفُسُكم أمراً فَصَبْرٌ جميل ﴾ ثمَّ أضاف قائلاً: ﴿ عسى اللهُ أن يَأْتِيَني بهم جميعاً ﴾ فكأن ما حَدَث قوَّى رجاءَه بقرب اللقاء، واشتدادُ المحنة يؤذن بقرب انفراجها، إنه الأمل بالله تعالى ﴿ إنَّه هو العَليمُ الحكيم ﴾ [٨٣].

دمـوع يعقوب عليه السلام

أعرض عليه السلام عن أولاده، وانصرف إلى آلامه وأحزانه ﴿ وتولَّى عنهم وَقَالَ يا أَسَفىٰ على يوسُفَ ﴾ أظهر أسفه وحزنه على فراق يوسف رغم قِدَم العهد به، ولم يظهر أسفَه على فراق ولديه الآخرين مع أنه حديثُ عهد بفراقهما ولعل السبب أنه يعرف مكانَهما وما حدَث لهما، أما يوسف فلا يعلم مكانه وما حَدَثَ له.

﴿ وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ منَ الحُزْنِ ﴾ والبكاء الطويل، فإنَّ الحزن المديد

والبكاء الكثير يضعفُ البصر، وقد يذهبه مع طول السنين ﴿ فهو كَظِيمٌ ﴾ [٨٤] ممتلىءٌ غيظاً وحزناً.

وشدَّةُ حزنه تدلُّ على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها قلوب الكُمَّل من الناس، وكلما ازدادَ الإنسانُ إيماناً بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه وأنصع في نفسه، فالإيمان بالله يكمِّل إنسانية الإنسان، ويفجِّر فيها ينابيعَ الخير والإحسان والحنان.

ولهذا نرى الكفار يغلب عليهم ضعف المشاعر الإنسانية، ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم، ويتخلّون عن أبنائهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعة الرحم وانحلال الأسرة أعظم السمات البارزة في حياتهم الاجتماعية[1].

والأنبياء عليهم السلام أكمل الناس إيماناً، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامةً، ومشاعر الأبوة خاصة، وكان حزن يعقوب عليه السلام أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة في قلبه.

والحزن الشديد غير محظور، لأنه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، إنما المحظور والمنهي عنه لطم الخدود وشقُّ الجيوب، والنّياحة كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال ﷺ عندما مات ولده إبراهيم: «تدمعُ العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون». ولما رأى عبد الرحمن بن عوف دموع رسول الله ﷺ قال له: وأنت يا رسول الله؟ قال: «يا ابن عوف إنها رحمة»[2].

ودمعت عيناه ﷺ عندما رفع له ولد لإحدى بناته وهو يموت، وقال:

---

(١) الأنساب والأولاد ص ٤١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

«هـذه رحمةٌ جعلهـا الله في قلوبِ عباده، وإنَّمـا يرحم الله من عبـاده الرحماء»[1].

وأقبل إخوة يوسف على أبيهم يلومونه بدلَ أن يواسوه: ﴿ قالوا تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ حتى تكُونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالكينَ﴾ [٨٥]: أي والله لا تزال تذكر يوسف حتى تدنو من الموت أو تموت حقيقة.

وتدل كلماتهم على أنهم لا يزالون على حقدهم وحسدهم ليوسف وغَيْرَتهم منه، فلم يخلُ لهم وجه أبيهم بإبعاد يوسف عنه كما كانوا يؤمِّلون، بل ازداد عليه السـلام تعلقاً به وشوقاً إليه، وظل طول هذه السنين يأمل بلقائه.

﴿ قال إنّما أشكو بَثِّي وحُزْني إلى الله ﴾: أي أشكو همِّي الذي لا أستطيع حبسه في قلبي وحزني إلى الله تعالى، فدعوني مع ربي أبثُّه همّي، وأرفعُ إليه حزني، والبثُّ: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه إلى غيره[2].

﴿ وأعلمُ من اللهِ ما لا تعلمون ﴾ [٨٦]: أي أعلم من رحمة الله وإحسانه ما لا تعلمون، فسيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، فقد كان عليه السلام يعلم أن يوسف لا يزال حياً، ويتوقع لقاءه؛ لأنَّ رؤيا ولده يوسف كانت رؤيا صادقةً، وقد عبرها نبيُّ الله يعقوب بعين النبوة التي لا تخطىء أبداً.

ثم أمر أولاده أن يعودوا مرةً ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنه كان يتوقع وجودَ يوسف في مصر، ويرىٰ أنَّ ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف ﴿ يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا من يوسُفَ وأخيه ﴾: أي تعرَّفوا أخبارَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) تفسير النسفي ٣/٤٤٦.

يوسف وأخيه بحواسكم في صبر ومن غير يأس، ﴿ ولا تَيْأسوا مِن رَوْحِ الله ﴾: أي من رحمة الله تعالى، ففيها الاسترواح من الكرب الخانق، لما ينسم على الأرواح من روح الله اللطيف الرحيم، ﴿ إنَّه لا يَيْأَسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾ [٨٧] فلا يأسَ مع الإيمان مهما اشتدَّ الكرب والضيق، وإنَّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب[1].

كشف الحقيقة

لم يستجب إخوة يوسف لطلب أبيهم، وانتظروا حتى نَفَقَت ميرتُهم، واشتدَّت حاجتهم، فيمَّموا وجوهَهم شطرَ مصر يمتارون، وقد عضَّتهم السنون وأتَتْ على كل ما عندهم، ولم يجدوا ثمناً لميرتهم سوى نقود زيوف كاسدة.

ودخلوا على يوسف يشكون إليه فاقتهم، يرجون إحسانه وفضله ﴿ فلمَّا دَخَلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيزُ مَسَّنا وأهلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾: أي ببضاعة مدفوعة غير مقبولة، ﴿ فأوفِ لنا الكَيلَ ﴾ فأتمَّ لنا كيل الميرة ﴿ وتصدَّقْ علينا ﴾ بقبول بضاعتنا الكاسدة، ولا تَنْقص كيلنا ﴿ إنَّ الله يجزي المتصدقين ﴾ [٨٨] أحسن الجزاء وأكمَلَه.

ويلاحظ أنهم أعرضوا عن وصية أبيهم، فلم يذكروا كلمةً واحدة بشأن أخيهم؛ بل ركَّزوا اهتمامهم على طلب المساعدة المادية، فكأنها في نظرهم أولىٰ من أخيهم ومن وصية أبيهم، فالمطالب المادية هي المحور الأساسي في حياتهم.

ولما رأى عليه السلام ذِلَّتهم وانكسَارَهم رقَّ لحالهم، فكشف لهم حقيقته، وأظهرَ أمرَه بعد أن ذكَّرهم بجريمتهم المنكرة، وما أظهر عليه السلام لهم أمرَه حتى أذِن الله تعالى له في ذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٢٦.

قال ابن كثير رحمه الله: والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف عليه السلام إنما تعرَّف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنّه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك[1].

﴿ قالَ هَلْ عَلِمْتُم ما فَعَلتُم بيوسُفَ وأخيه إذْ أنتم جَاهِلون ﴾ [٨٩]: أي عندما كنتم متلبسين بحالِ الجاهلين، أصحاب السفاهة والحماقة والطيش، فالمراد من الجهل هنا السَّفَه والحَمَق والطَّيْشِ، كما في قول الشاعر:

ألاَ لا يَجْهَلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

وكأنه عليه السلام ذكَّرهم بحالهم القبيح الذي كانوا عليه؛ ليبادروا إلى التوبة والاستغفار، وتصفية أنفسهم وتطهيرها، وما أراد عليه السلام الانتقام والتشفّي، فالأنبياء عليهم السلام لا يحقدون على أحد، ولا يقابلون الإساءة بمثلها، إنما يقابلون الإساءة بالإحسان، ويدفعون السيئة بالحسنة، كما قال تعالى: ﴿ ادْفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم ﴾[2].

وتحقَّق بهذا ما أوحى الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة الجب ﴿ وأوْحَيْنا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾.

وفاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم، فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العزِّ والسلطان والتمكين، حتى يصبح عزيزَ مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في الجب يطلبون فضله وإحسانه، وكأنَّهم لم يصدِّقوا ما سمعوا، فسألوه:

﴿ قالوا أإنّك لأنتَ يُوسُفُ ﴾ أحقاً أنت يوسف، يوسف حاكم مصر ومن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٠.

(٢) فصلت: الآية ٣٤.

بيده مفاتيح خزائنها وخيراتها، وأجابهم عليه السلام مؤكِّداً لهم الحقيقة ﴿ قال أنا يوسُفُ وهذا أخي ﴾ الشقيق ﴿ قد مَنَّ اللهُ علينا ﴾ بفضله ورحمته، فلا تعجبوا ﴿ إنَّه من يَتَّقِ وَيَصْبِر فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ [٩٠].

فالتقوى والصبر سلاحُ المؤمن وعدّته في كل أحواله وتقلباته؛ وخاصة في أوقات المصائب والمحن، قال تعالى: ﴿ ومن يتَّق الله يجعلْ له مَخْرَجاً. ويرزُقه من حيثُ لا يحتَسِب ومن يتوكَّل على الله فهو حسبُه إنَّ الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قَدْراً ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿ واصبر وما صبرُكَ إلا بالله ولا تَحزَن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون. إنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٢].

بين موقفين

وأقرَّ إخوة يوسف بفضل يوسف عليهم، وعَرَفوا أنَّ الله تعالى فضَّله عليهم، واعترفوا أنهم كانوا مخطئين بحسدهم له وبغيهم عليه ﴿ قالوا تالله لقد آثَرَكَ اللهُ علينا ﴾: أي والله لقد فضَّلك الله علينا ﴿ وإنْ كنَّا لخاطئين ﴾ [٩١]. قالوا ذلك معترفين له بالفضل والأثَرة عليهم في الخَلق والخُلق، والسعة والملك، وأقرُّوا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا في حقه[٣].

فأجابهم عليه السلام بقلبه الطاهر النقي: ﴿ قَالَ لَا تَثْريبَ عليكُم اليوم ﴾: أي لا عتب عليكم ولا لوم اليوم، فلن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسحَ لقاءُ اليوم شقَاءَ السنين الطويلة، وعَنَاء المحن الماضية الكثيرة.

ولم يكتف عليه السلام بهذا، بل توجَّه إلى الله تعالى يسأله المغفرة

---

(١) الطلاق: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) النحل: الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٠.

لهم والستر عليهم ﴿ يغفِرُ اللهُ لكم وهو أرحَمُ الراحمين ﴾ [٩٢].

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ عند الكعبة المشرفة، بعد أن دخل مكة المكرمة فاتحاً، وقال يخاطب أهل مكة: «ما تقولون أنِّي فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، فقال: «أقولُ كما قال أخي يوسف: ﴿ لا تَثْريبَ عليكُمُ اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

ولا شك أن يوسف وقفَ من إخوته موقفاً كريماً ونبيلاً، ولكن موقف رسول الله ﷺ كان أكرم وأنبل؛ لأنَّ يوسف قال ذلك لإخوته، بينما النبي ﷺ قاله لقبيلته وعشيرته، وإخوة يوسف ألقوه في الجبِّ وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذبوا رسول الله ﷺ وآذوه وعذَّبوا أصحابه، ومنعوه أن يبلِّغ دعوة الله تعالى حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، فحاربوه وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه ومثَّلوا بهم، وألَّبوا الأحزابَ عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكَّن منهم، فكان عفوه عليه الصلاة والسلام أكمل وأنبل.

الدواء والشفاء

ثم أمرهم عليه السلام أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً: ﴿ اذْهَبوا بقميصي هذا فألْقُوهُ على وَجْهِ أبي يَأتِ بَصيراً وأْتُوني بأهلِكُم أجمعين ﴾ [٩٣] وعادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ولا دليلَ براءته، وإنما حَمَل في هذه المرة الدواءَ والشفاءَ لعيني أبيه يعقوب اللتين ابْيضَّتا من الحزن على فراقه، فما سرُّ هذا القميص؟ إنه قميص يوسف، يحمل أثراً من جسد نبيِّ الله يوسف عليه السلام، جعل الله تعالى فيه الشفاءَ لِعَيْني يعقوب عليه السلام، فالأمر معجزة

---

(١) انظر زاد المعاد ٣/٤٠٨.

أكرم الله تعالى بها نَبِيَّيْن كريمَيْن، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء بدون دواء، وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى.

والأمر ليس خاصاً بالأنبياء عليهم السلام، فكثيراً ما قرأنا وسمعنا أن الله تعالى منَّ بالشفاء على بعض المرضى بعد أن يئس الأطباء من شفائهم، ولقد ذكر الطبيب الفرنسي ألكسس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) كثيراً من حوادث الشفاء بدون دواء، رآها بنفسه أثناء ممارسته لمهنته؛ مما دفعه إلى تأليف كتابه هذا للردِّ على الماديين الذين ينكرون الجانب الروحي لدى الإنسان.

ومن آخر ما قرأت في هذا الموضوع ما نشرته جريدة المسلمون في تحقيق صحفي عن حوادث شفاءٍ حدثت لمرضى بعد أن يئس الأطباء من شفائهم[1].

فالشفاء بيد الله تعالى يخلقه عند تعاطي أسبابه كتناول الدواء، ويخلقه أيضاً بدون أسباب بقدرته ومشيئته، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من رحمة الله تعالى، والإنسان ليس مادة فقط، الإنسان روح ومادة، والروح هي الجانب المهم في تكوينه، ومع ذلك فهو لا يعلم شيئاً عنها.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقُوه على وجهِ أبي يأتِ بصيراً ﴾ يدل على شدّة ثقته بتحقُّق ما يقول، إنه على يقين أن أباه سيشفى ويرجع بصيراً كما كان؛ لأنه يكلمهم بلسان النبي الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، والوحي لا يخطىء أبداً، لأنه من العليم الخبير سبحانه.

ونلاحظ كيف تأدب عليه السلام مع أبيه بقوله: ﴿ وَأْتُوني بأهْلِكم

---

(١) انظر: جريدة المسلمون عدد ١٩٠ تاريخ ١٤٠٩/٢/١٨ هـ.

أجْمَعينَ ﴾ ولم يقل: وأتوني بأبي، فأبوه نبيٌّ كريم لا يأتي إليه إلا إذا أذن الله تعالى له بذلك، كما سبق بيانه، ولهذا سكت عن أبيه مفوِّضاً أمر حضوره إلى مصر إلى ربه سبحانه.

ريحُ يوسف وآثار الأنبياء

﴿ ولمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾: أي انفصلت عن البلد التي كانت فيها وغادرتها ﴿ قالَ أبوهُمْ ﴾ لمن كان حولَه من الأهل والأحفاد ﴿ إنّي لأجدُ ريحَ يوسُفَ ﴾: أي إني لأشمُّ رائحةَ يوسف، وعبَّر بكلمة (أجد) لتأكُّده منها، فرائحة يوسف موجودةٌ حقيقةً في حاسّة شمِّه، وهو يحسُّ بها حقيقة لا تخيلاً، كما هو حال العشاق المتيمين، كقول أحدهم:

وإني لأستشفي بكل غَمَامةٍ يهب بها من نحوِ أرضك ريح

وقول الآخر:

أَلَا يا نسيمَ الصُّبح مالكَ كلما تقرَّبت منَّا فاح نَشْرُك طَيِّبا
كأنَّ سليمىٰ نُبِّئَت بسِقَامنا فأعطتك ريَّاها فجئتَ طبيبا

ومثله في الشعر كثير، وكله من المبالغات والتخيلات، لكن قول يعقوب عليه السلام: ﴿ إنِّي لأجدُ ريحَ يوسف ﴾ حقيقة وجدها نبي كريم فأخبر عنها. كيف وجدها، وكيف ميَّزها عن غيرها؟ وكيف تذكرها وقد مرَّ على مفارقته ليوسف أكثر من عشرين عاماً؟.

والجواب: أنها أمر معجز، أوجدها الله تعالى بقدرته لنبيِّه الكريم يعقوب عليه السلام، فهي معجزة له وحده ولهذا لم يجدها من كانوا معه ولم يشعروا بها، وهو ما جعل يعقوبَ عليه السلام يستدرك قائلاً لهم: ﴿ لَولاَ أن تُفَنِّدونِ ﴾ [٩٤]: أي لولا أن تنسبوني إلى الفَنَد ـ وهو فسادُ العقل بسبب تقدّم العمر ـ لصدَّقتموني.

ولقد حدث ما توقعه عليه السلام منهم: ﴿ قالوا تالله إنَّك لفي ضلالِك

القديم ﴾ [٩٥]: أي والله إنك لا زلت متمسكاً بخطئك القديم، وهو توقع لقاء يوسف ورؤيته.

﴿ فلما أنْ جاءَ البشير ﴾ حاملُ القميص ﴿ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً ﴾: أي رجع قوي البصر كما كان قبل أن يضعف بصره بسبب طول حزنه، فالأنبياء عليهم السلام أكمل الناس خَلقاً وخُلقاً، وهم معرَّضون كسائر البشر إلى إصابتهم بالمرض والضعف، ولكنهم لا يصابون بأمراض منفِّرة تنفِّر الناس عنهم، وضعف البصر والعمى لا يعد من الأمراض المنفرة.

أظهر الله تعالى في قميص يوسف معجزتين ليعقوب عليه السلام، الأولى: عندما وجد ريح يوسف عندما فَصَلت العير من مصر، والثانية: أنه رجع بصيراً عندما لامَسَ القميصُ وجهَه، فأيُّ سرٍّ جعله الله تعالى في قميص يوسف؟.

وهذا يفسِّر لنا شدَّةَ حرص الصحابة رضي الله تعالى عنهم على آثار النبي ﷺ، فكان إذا ما توضأ ابتدروا وَضوءَه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخّم نُخَامةً إلا تلقَّوها بأكفهم فدلَكوا بها وجوهَهم وأجسادَهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها[١].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[٢].

وعندما نام رسول الله ﷺ في دار أنس، جاءت أمُّه بقارورة تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك فقالت: نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب[٣]. وفي رواية أخرى قالت: نرجو بركته لصبياننا. قال: «أصبت».

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها[1].

وعن طَلْق بن علي رضي الله عنه قال: خرجنا وفداً إلى رسول الله ﷺ، فبايعناه وصلَّينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بَيْعةً لنا، واستوهبناه مِن فَضْل طَهوره، فدعا بماء فتوضأ وتمضمض، ثم صبَّه لنا في إدَاوة، وقال: «إذا أتيتم فاكسروا بَيْعتكم، وانضحوا مكانها هذا الماء، واتّخذوها مسجداً»، فقلنا: إن البلد بعيد والحرَّ شديد والماء ينشف، فقال: «مدُّوه من الماء فإنه لا يزداد إلا طيباً» فقدمنا بلدنا وكسَرْنا بَيْعتنا ثم نضحنا مكانها واتخذناها مسجداً، فنادَيْنا فيه بالأذان، قال: والراهب رجل من طَيْء، فلما سمع الأذان قال: دعوة حقٍ. ثم استقبل تَلْعَةً من تلاعنا فلم نره بعده[2].

تعارض وتناقض

وأول كلمة قالها يعقوب عليه السلام بعد أن ردَّ الله عليه بصره ﴿ قال ألم أقل لكم إنّي أعلمُ منَ الله ما لا تعلمون ﴾ [٩٦] فقد كان عليه السلام على علم من الله تعالى لا يخطىء، علَّمه الله تعالى إيَّاه بواسطة الوحي الذي ينزله على الأنبياء، فهو مصدرٌ كبير من أكبر مصادر الحقيقة والعلم، والإنسان لا يعرف كلَّ شيءٍ بواسطة حواسه الظاهرة المحدودة، وما يمكن أن يتعلمه بحواسه قليل جداً بالنسبة لما يمكن أن يتعلمه ويتلقاه من الله تعالى، وهذا ما أكدت عليه آيات السورة، كما مر معنا.

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن بعض المتأخرين ممن كتبوا في تفسير

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه النسائي رقم (٧٠١) في كتاب المساجد، باب اتخاذ البَيعَ مساجد. والتَّلعة: مجرى الماء من أعلى الوادي، والجمع (تِلَاع)، والتَّلعة أيضاً ما انهبط من الأرض فهي من الأضداد. كما في المصباح المنير ص ٧٦.

سورة يوسف، حاول صرف معاني هذه الآيات الكريمة عن حقيقتها التي وضعت لها إلى معانٍ مجازية، فما وُفِّق وجانبَ الصواب، ووقع في تناقض وتعارض واضحين[1].

فالأصل الذي ينبغي التزامه في التفسير أن تحمل الكلمات القرآنية على معناها الحقيقي، ولا يجوز صرفها إلى معنى آخر مجازي إلا بوجود صارف من القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة.

فلا يجوز أن نفسِّر قميص يوسف بمكانته ووجاهته في السياسة والحكم، وكيف يستقيم لنا هذا المعنى والله يقول: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ فما فائدة اسم الإشارة إذا لم يكن عليه السلام يُشير به إلى قميصه الذي كان في يده، وسلَّمه لإخوته؟!.

وكيف يقول لهم: ﴿ فألقوه على وجه أبي ﴾ إذا كان مراده المكانة والوجاهة التي كانت له في مصر، فهل المكانةُ والوجاهةُ من الأشياء المادية التي تلقى إلقاءً أم تنقل نقلاً ويتحدث بها؟.

والأنبياء عليهم السلام لا يهتمون بالمراتب والسلطان، ولا يَحفلون بالوجاهة والمكانة، فيوسف لا يهتم لها كل هذا الاهتمام حتى يكلف إخوته أن ينقلوا أخبارها إلى أبيه، ويعقوب عليه السلام نبيٌّ كريم أيضاً لا يهتم بكل هذه الأمور الدنيوية حتى يفرح بها فرحاً يرد له بصره، وهل وَجَدَ يعقوب رائحة يوسف عليه السلام من خلال مكانته وسلطانه أم من قميصه؟ اللهم إني أبرأ إليك من مثل هذا التخليط وسوء الفهم.

تأويل الرؤيا

وبادر إخوةُ يوسف يطلبون من أبيهم أن يسألَ الله تعالى المغفرة لهم معترفين بذنوبهم ﴿ قالوا يَا أَبَانَا استغْفِر لنا ذنوبَنا إنَّا كنَّا خاطئين ﴾ [٩٧] ولم

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢/١٢٦٥.

يُجِبْهم عليه السلام إلى طلبهم مباشرة، بل أخَّره إلى وقت آخر، كأنه عليه السلام أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم، أو أنه أخَّرَ الاستغفار إلى وقت تُرجى فيه الإجابة أكثر كوقت السَّحَر، أو لعله عليه السلام أخَّره حتى يلتقي بيوسف ويراه ويطمئن عليه، فما راءٍ كمن سمعا.

﴿ قال سوف أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [٩٨] وتدلُّ الآية على جواز طلب الاستغفار من أهل الصلاح والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجَدُوا الله تَوَّاباً رحيماً ﴾[1].

وَرَحَل يعقوب وأبناؤه إلى مصر ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أَبَوَيْه ﴾: أي ضمَّهُما عليه السلام إليه.

ويدل ظاهر الآية على أن أمَّه كانت حيةً خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنهم قالوا: ماتت أمه قبل أن تبدأ أحداث القصة، وتأثَّروا بذلك بما يروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار لا ثقة بها، كما سيأتي، والأصل حمل الكلام على حقيقته، ولم تذكر في القصة لأنه لم يكن لها دور في حوادثها.

﴿ وقال ادخلوا مِصْرَ إن شاء الله آمنين ﴾ [٩٩]: أي ادخلوا مصر دخولَ المستوطنين بها بلا خوفٍ من أحد، فأنتم آمنون، أو لعلَّه عليه السلام خرج لاستقبالهم إلى حدود بلاد مصر وقال لهم ذلك ثمة.

وكرَّم عليه السلام والديه، وأجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه ﴿ وَرَفَعَ أبويه على العَرْش ﴾ والظاهر أنه سريرٌ مرتفع عما حوله، ولا يجوز للولد أن يجلس في مجلس مرتفع عن مجلس والديه.

---

(١) النساء: الآية ٦٤.

﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾: أي وانحنى والدا يوسف وإخوته ليوسف انحناء التواضع والتحية، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وهو محرم في الإسلام.

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تأويلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وهي التي ذكرها سبحانه في أول السورة ﴿ قَدْ جَعَلَها ربِّي حقاً ﴾ صِدْقاً فهي رؤيا تنبُّئيّة صادقة، وقد علم يعقوب عليه السلام صدقَها منذ سمعها من يوسف، ولهذا كان يقول: ﴿ وأعلمُ من الله ما لا تعلمون ﴾ فالرؤيا الصادقة وسيلةٌ من وسائل العلم تقرِّب للإنسان حقيقةَ الوحي الذي يتلقاه الأنبياء عليهم السلام.

ثم تحدّث عليه السلام بنعم الله تعالى عليه بعد مفارقته لأبيه فقال: ﴿ وَقَدْ أحسنَ بي إذ أَخْرَجني من السِّجْنِ ﴾ ولم يذكر عليه السلام إحسانَ الله تعالى عليه بتيسير إخراجه من الجب حتى لا يعرِّض بإخوته ﴿ وَجَاءَ بكُم من البَدْوِ ﴾: أي البادية التي كانوا يقيمون بها، والواقعة بأطراف بلاد الشام الجنوبية ﴿ مِنْ بَعدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بيني وَبَيْنَ إخوتي ﴾: أي أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي، ولا تَسَلُّطَ للشيطان على يوسف عليه السلام؛ لأنه نبيٌّ كريم، وإنما كان تسلّطه على إخوته كما مر معنا، مما يؤكد أنهم لم يكونوا أنبياء.

﴿ إنَّ ربي لطيفٌ لما يشاء ﴾: أي إنه تعالى لطيف في تدبيره لما يريد، يلطف بعباده من حيث لا يعلمون، ويرفُق بهم ﴿ إنَّه هو العليم ﴾ بأحوالِ عباده ﴿ الحكيم ﴾ [١٠٠] في تدبير أمورِ خلقه.

أمنيــة يــوســف

ثم توجَّه عليه السلام إلى الله تعالى بهذا الدعاء الخاشع الضارع: ﴿ ربِّ قد آتَيْتَني من المُلْكِ وَعَلَّمتني من تأويلِ الأحاديث ﴾ قدَّم عليه السلام بين يدي دعائه اعترافَه بفضل الله تعالى عليه بما أعطاه من الملك والسلطان، وبما علمه من علوم تعبير الرؤيا ﴿ فاطِرَ السمواتِ والأرض ﴾: أي يا مبدعَ

السمواتِ والأرض وخالقَهما على غير مثال سبق ﴿ أنتَ وليِّـي في الدنيا والآخرةِ ﴾: أي أنت متولِّي أمري كله في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ إنَّ وَلِيِّـيَ اللهُ الذي نَزَّلَ الكتَابَ وهو يتولَّى الصالحينَ ﴾[1].

وبعد هذا الثناء والتفويض رفع عليه السلام إلى رب العزة سُؤْله، واشتمل على أمرين:

أولهما: ﴿ توفَّني مُسْلماً ﴾: أي أمِتْني وأنا مستسلمٌ لأمرك ومشيئتك وحدك، وهو أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له جل جلاله كما قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾[2]، فالموت على الإسلام مطلبٌ عزيز ونفيسٌ وشريفٌ، حتى تشوَّفت إليه نفس الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام، إنَّه عليه السلام يتَّهم نفسه ويخشى أن ينزل به الموت وهو في حال غفلةٍ عن ربه، وإذا كان هذا حال النبي الكريم فما حالنا نحن؟ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يكثر من القول تعليماً لنا: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»، وهو ما علَّمنا إياه ربُّنا بقوله الكريم: ﴿ ربَّنا لا تُزِغ قلوبَنا بعد إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنْتَ الوهَّاب ﴾[3].

وثانيهما: ﴿ وَأَلْحِقْني بالصَّالحين ﴾ [١٠١] في الرفيق الأعلى مع الأنبياء والصدِّيقين والشهداء الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾[4]، وهم الذين طلب النبي ﷺ اللحاقَ بهم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فلما نزل

---

(١) الأعراف: الآية ١٩٦.

(٢) آل عمران: الآية ١٠٢.

(٣) آل عمران: الآية ٨. والحديث رواه مسلم والترمذي عن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) النساء: الآية ٦٩.

برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غشيَ عليه ساعةً، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» فكانت تلك آخر كلمةٍ تكلم بها رسول الله ﷺ[1].

تلك هي أمنيةُ يوسف عليه السلام عزيز مصر، وصاحب سلطانها وخيراتها: الموت على الإسلام، واللحاق بقافلة الصالحين الأبرار، أصحاب الرفيق الأعلى.

أسألك ربي الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين.

---

(١) رواه مسلم.

تعقيبات

على قصة يوسف عليه السلام

التعقيـــب الأول

وبعد أن فَرَغت آيات السورة من قصة يوسف عليه السلام أوردت بعدها سبعة تعقيبات:

كان أولها في قوله تعالى وهو يخاطب النبيَّ ﷺ ﴿ ذلك ﴾ الذي تقدَّم من قصة يوسف ﴿ من أنباءِ الغيبِ ﴾ الغائب عنك والذي لا تعرفه إلا بالوحي؛ ولهذا قال بعده: ﴿ نوحيه إليكَ ﴾: أي نُنَزِّله عليك بالوحي، وهو ما أرادت السورة أن تؤكده كحقيقة واقعة بآثاره المحسوسة الملموسة، وقصةُ يوسف وما فيها من أخبار الغيب مـن آثار الوحي المحسوسة الملموسة.

وقد جاء هـذا التعقيب الأول متَّفقاً تمام الاتفاق مع ما قرره سبحانه في صدر السورة بقوله: ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾.

فلولا الوحي ما عرف النبي ﷺ القرآن الكريم، وما وقف على ما فيه من أخبار وأحداث ماضية غائبة عنه، فبينه ﷺ وبين الزمن الذي حدثت فيه حوادث قصة يوسف أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً، وكان عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعاش بين قوم أميين يغلب عليهم الجهل، بعيداً عن مواقع أحداث القصة؛ ولهذا قال تعالى له: ﴿ وَمَا كنتَ لديهم ﴾: أي لدى

إخوة يوسف ﴿ إِذْ أجمَعوا أمْرَهُم ﴾ على إلقاء يوسف في الجب ﴿ وَهُمْ يَمكُرون ﴾ [١٠٢] بيوسف عليه السلام.

اختار سبحانه ذكر هذا المشهد من مشاهد قصة يوسف؛ لأنه كان أخفى مشاهدها وحوادثها، فقد بالغ إخوة يوسف عندما مكروا به في إخفائه، ورغم هذا أظهره العليم الحكيم الذي يعلم السرَّ وأخفى، والذي يعلم كل غائبة في السموات والأرض، وأعلم به النبي ﷺ بالوحي المنزل عليه بعد ألفين وثلاثمائة سنة من زمن وقوعه.

فهو كقوله تعالى: ﴿ وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يكفُلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون ﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿ وما كُنتَ بجانب الغَرْبيِّ إذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدينَ. ولكنَّا أنْشَأْنا قروناً فَتَطَاوَلَ عليهمُ العُمُرُ وما كنتَ ثَاوِياً في أهل مَدْيَنَ تَتْلُو عليهم آياتِنَا وَلكِنَّا كُنَّا مرسلين. وَمَا كُنْتَ بجانب الطُّورِ إذ نَادَيْنَا ولكن رحمةً من ربِّك لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهُم من نذيرٍ من قبلك لعلَّهم يتذكَّرون ﴾[2].

فالوحي إذن مصدرٌ من مصادر المعرفة والعلم، وهو مصدرٌ يقيني لا يخطىء أبداً، ولا مجال لإنكاره؛ لأنه يحمل في مضمونه مؤيِّداتِ صدقه، وشواهدَ وقوعه وصحته.

قصة يوسف بين القرآن والتوراة

وقد زعم بعض المستشرقين والمتأثرين بهم أن النبي ﷺ قد استقى هذه الأخبار من التوراة، وهذا الزعم باطل من وجوه كثيرة:

أولاً: ليس ثمة دليل واحد يثبت وقوعه.

---

(١) آل عمران: الآية ٤٤.

(٢) القصص: الآيات ٤٤ - ٤٦.

ثانياً: كان عليه الصلاة والسلام أميّاً لا يقرأ ولا يكتب.

ثالثاً: عاش عليه الصلاة والسلام في مكة بعيداً عن أهل الكتاب وعن مواقع القصة في مصر وفلسطين.

رابعاً: القصة عبرية في أبطالها، وقد كانوا يتكلمون بعدة لغات: العبرية والآرامية والمصرية القديمة، بينما ذكرت القصة في القرآن الكريم باللغة العربية وبأعلى أساليب البلاغة والفصاحة عند العرب، كما قال سبحانه في أولها: ﴿ إنَّا أنْزَلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾.

خامساً: هناك فروق جوهرية كبيرة بين ما ذكره القرآن الكريم عن حوادث القصة، وبين ما هو موجود في التوراة، ولو كان النبي ﷺ اقتبسها من التوراة كما زعموا لما وجدت هذه الفروق، وفيما يلي بعضها:

١ ـ لم يذكر القرآن سوى رؤيا واحدة ليوسف، وهي رؤياه للشمس والقمر والكواكب، ولم يذكر أنه قصَّ رؤياه على إخوته.

بينما التوراة تذكر له رؤيا ثانية سابقة على هذه الرؤيا، وهي أنه رأى نفسه مع إخوته في الحقل، ومع كل واحد حزمة، وأنه رأى حزم إخوته سجدت لحزمته، وفيها أيضاً: أنه قصَّها عليهم، وقص عليهم أيضاً رؤياه الثانية.

٢ ـ وذكرت التوراة أنَّ يعقوب انتهر ولده يوسف عندما قصَّ عليه رؤياه وقال له: هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض.

بينما القرآن ذكر أن يعقوب أثنى على ولده يوسف وتنبأ له بمستقبل باهر.

٣ ـ ذكرت التوراة أن يوسف ذهب مع إخوته إلى المرعى بأمر أبيه، بينما ذكر القرآن أن يعقوب عليه السلام كان يخشى على ولده من الذهاب مع إخوته، وأنه ما أرسله معهم إلا بعد طلبهم وإلحاحهم.

٤ ـ ومرَّ معنا في القرآن أنهم جاؤوا أباهم عشاءً يبكون بعد أن جعلوا يوسف في الجبِّ، وهم يحملون القميص، بينما ذكرت التوراة أنهم أرسلوا القميص إلى أبيهم بواسطة رسول أرسلوه إليه.

٥ ـ وفي القرآن أن يعقوب قال: ﴿ بل سوَّلت لكم أنفسُكُم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾، وفي التوراة أنه مزَّق ثيابه ولبس مَسْحاً وناح على ابنه أياماً كثيرة.

٦ ـ وفي القرآن أن وَارِدَ السيارة أخرج يوسف من الجب، وفي التوراة أنهم سحبوه منها وباعوه للقافلة.

٧ ـ لم تذكر التوراة وصية عزيز مصر زوجته بيوسف ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾.

٨ ـ لـم تذكر التوراة عند المراودة تغليق الأبواب، وذكرت أن يوسف هرب وحده إلى الباب، وأنها لم تلحق به، وأنها أمسكت ثوبه فتركه في يدها.

٩ ـ ذكرت التوراة أن عزيز مصر حَميَ غضبُه عندما اتهمت زوجته يوسف، بينما القرآن الكريم ذكر ما يخالف ذلك.

١٠ ـ لم تذكر التوراة شيئاً عن كلام النسوة وحادثة تقطيع الأيدي، كما أنها لم تذكر دعوة يوسف صاحبي سجنه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

١١ ـ وصف القرآن حاكم مصر بالملك، بينما وصفته التوراة بفرعون.

١٢ ـ في القرآن أن يوسف عبر رؤيا الملك للساقي وهو لا يزال في السجن، بينما في التوراة أن فرعون أرسل إليه وأخرجه من السجن، ثم قصَّ عليه حلمه فعبره يوسف له.

١٣ ـ لم تذكر التوراة قول يوسف: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾.

١٤ ـ ذكرت التوراة أن إخوة يوسف سافروا إلى مصر مرتين، وأنه أظهر لهم أمره في المرة الثانية، بينما مر معنا في القرآن أنهم سافروا إلى مصر ثلاث مرات، وأظهر لهم أمره في المرة الثالثة.

١٥ ـ صرَّح القرآن بأنَّ الذين سجدوا ليوسف هم أبواه وإخوته، بينما ذكرت التوراة أن الذين سجدوا ليوسف هم إخوته فقط بعد موت أبيهم[١].

التعقيب الثاني

ومع كل هذه الحقائق التي أوردتها السورة، والتي تؤكد ظاهرة الوحي ووقوعها، ونزول القرآن الكريم على النبي ﷺ بواسطة الوحي، مما يدل على صحة نبوته وصدق رسالته، نرى كثيراً من الناس يعرضون عن هذه الحقائق وينكرونها ويجادلون فيها، ويثيرون الشبهات حولها ولهذا جاء التعقيب الثاني على قصة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾ [١٠٣] فمهما كنت حريصاً على إيمانهم وتصديقهم فقرَّبت لهم الحقائق، وحشدت لهم البراهينَ القطعية، والحجَجَ البالغة، فإن أكثرهم يبقى مُعْرِضاً عن الحق مُعَانِداً له.

وهي حقيقة واقعية ملموسة ومشهودة في كل عصر من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، فلا عَجَب بعد ذلك أن نرى في عصرنا المادي الحاضر أقواماً ينكرون ظاهرة الوحي، ويستبعدون حدوثها، بل ينكرون الجوانب الروحية في الإنسان، كما نرى أيضاً من ينكر نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته، زاعمين أنه اقتبس ما في القرآن الكريم من أخبار من كتب أهل الكتاب، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون، وما حملهم على هذه المزاعم الباطلة إلا التعصب الأعمى المذموم، وإن قوله تعالى في هذا التعقيب:

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/١٢٢ عن الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين.

﴿ وَمَا أكثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾ لدليل على أنه كلام العليم الخبير الذي وسع علمه كل شيء في كل زمان ومكان.

التعقيب الثالث

وجاء التعقيب الثالث على قصة يوسف ينزِّه النبيَّ ﷺ عن أي غرض مادي، فدعوته عليه الصلاة والسلام كدعوة جميع المرسلين قبله منزهة عن الأغراض الدنيوية المادية التي جعلها المعاندون لدعوته هدفهم الكبير، الذي يسعون وراءه في حياتهم، ويضحُّون من أجله بكل حقيقة، قال تعالى يخاطب النبيَّ ﷺ: ﴿ ومَا تسألُهُمْ عليه من أجر إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالمين ﴾ [١٠٤].

وهذا دليل يدل على صدقه عليه الصلاة والسلام: لقد فتح الله عليه فتوحاً كبيرة، وجاءته أموال كثيرة، وغَنِم غنائم عظيمة، وتوفي عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة، وليس في بيته شيء يأكله ذو كبد حَرَّىٰ، إلا شطرَ شعير على رفٍّ حُجرة السيدة عائشة رضي الله عنها[1].

ولما طلب منه أمهات المؤمنين أن يوسع عليهن في النفقة بعد أن فتح الله عليه، هجرهن عليه الصلاة والسلام شهراً، واعتزلهن حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿ يا أيُّها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْن أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سراحاً جميلاً. وإن كنتنَّ تردنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فإنّ الله أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجْراً عظيماً ﴾[2].

فمن يفعل ذلك غير الأنبياء عليهم السلام؟ لما ملك يوسف عليه السلام كنوز مصر وخيراتها، وأصبح الحاكم الحقيقي فيها، سأل الله تعالى أن يرحل عن الدنيا ليلحق بقافلة الصالحين في الرفيق الأعلى، وما سأل ذلك

---

(١) انظر: السيدة عائشة أم المؤمنين، للمؤلف.

(٢) الأحزاب: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

عندما كان مُمْتَحناً في الجب والسجن، بل سأل ذلك وهو متربع على سُدَّة الحكم في مصر وبيده مفاتيح خزائنها وخيراتها، وكذلك فعل نبينا ﷺ عندما شعر أنَّه بلَّغ دعوته وأدى أمانته، وعلم أنها أصبحت في أيد أمينة ستحملها بعده إلى أطراف الدنيا، اختار عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى.

التعقيب الرابع

وما أكثر البراهين والبيِّنات في القرآن الكريم، وما أكثرها أيضاً في أنفسنا وفي الكون المحيط بنا، ومع ذلك فإنَّ كثيراً منا يعرضون عنها ولا ينتفعون بها؛ ولهذا قال تعالى في التعقيب الرابع: ﴿ وكأيِّن من آيةٍ في السموات والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها مُعْرِضُون ﴾ [١٠٥]: أي ما أكثر الدلائل التي يشاهدونها ولا يتفكرون فيها ولا ينتفعون بها.

وما أصدقَ هذه الآية الكريمة في أولئك العلماء الباحثين في المخابر والمراصد ومراكز البحث العلمي، وهم يشاهدون كثيراً من آثار قدرة الله تعالى وحكمته في هذا الكون، ومع ذلك تراهم لا يؤمنون بمبدعها وخالقها سبحانه.

وقد يقول قائل: كيف تقول إن أكثر الناس لا يؤمنون بالله تعالى ولا ينتفعون بما يشاهدون من آثار قدرته، وقد مرَّ معنا في آيات السورة ما يدل على إيمان أكثرهم بالله تعالى، فالنِّسوة اللاتي قطَّعن أيديهن قُلنَ ﴿ معاذ الله ﴾، ﴿ حاشا لله ﴾ وهنَّ نساء الطبقة المترفة في مصر، وهذا يدلُّ على أنهن كن يعرفن الله تعالى؟.

وأقول: لقد ذكرت هذا في موضعه وبيّنت وجهه، وقد زادته الآية التالية وضوحاً ﴿ وما يؤمنُ أكثرُهم بالله إلا وَهُم مشركون ﴾ [١٠٦] فهم يقرُّون بوجود الله تعالى ـ فما أنكر وجودَ الله تعالى إلا حَفنةٌ من الماديين والدهريين ـ ولكنهم مع إقرارهم بوجوده يشركون بعبادته وطاعته، وما أرسل الله تعالى

الرسل ليقولوا للناس: آمنوا بوجود الله تعالى، فالإيمان بوجوده سبحانه فطرة مركوزةٌ في فطر الناس عرفتها كل الأمم والشعوب، وإنما أرسل تعالى الرسل ليقولوا للناس: ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ﴾: أي اعبدوه وحده وأطيعوه وحده، ولا تعبدوا غيره من صنم أو وثن أو حاكم أو شيطان أو ملَك أو ولـي أو نبي.

ومرَّ معنا قول يوسف لصاحبي سجنه: ﴿ يا صَاحِبَيِ السِّجنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهَّارُ. ما تعبُدُونَ من دونه إلا أسماءً سمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أَنْزَلَ اللهُ بها من سُلْطانٍ إنِ الحُكْمُ إلا لله أمَرَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاه ذلك الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ ﴾.

فتأمَّل الانسجام والاتفاق بين ما حكى الله من كلام يوسف عليه السلام وبين ما جاء في التعقيب على القصة ﴿ وما أكثرُ النَّاسِ ولـو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾، ﴿ وما يؤمنُ أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون ﴾.

ولا بد لأولئك المعرضين عن الأدلة والبراهين ذوي العقول المغلقة، والمشاعر الغليظة المتبلّدة من أسلوب آخر يهزُّ مشاعرهم، لعلها تتفتح على الهدى وتقبل الرشاد، وهو أسلوب الترهيب مما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تأتيَهُم غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ الله ﴾: أي نازلة ومصيبة تنزل بهم فجأة ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وهم لا يشعُرُونَ ﴾ [١٠٧] أو يأتيهم يوم القيامة بأهواله وأفزاعه وهم لا يشعرون بإتيانه وغير مستعدين له. فهو كقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الذينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أن يخسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أو يأتيَهُمُ العَذَابُ من حَيْثُ لا يَشْعَرُونَ ﴾[1].

التعقيب الخامس

وجاء التعقيب الخامس يأمر النبيَّ ﷺ أن يبيِّن للناس حقيقة الطريق

---

(١) النحل: الآية ٤٥.

الذي يسير عليه في الدعوة إلى الله تعالى ﴿ قُلْ هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرةٍ ﴾.

فالدعوةُ إلى الله تعالى بأسلوب عقلي علمي أساسه الحجة والبرهان هي سبيلي الذي أسير عليه، فالإيمان بالله يقوم على الاقتناع بالحجة والبرهان لا بالإكراه بالسيف والسِّنان، ولا بواسطة التهويلات والشعوذات وإحاطة الإنسان بهالة من الافتراءات والأكاذيب.

دعوة الإسلام دعوةٌ واضحةٌ بيِّنة صريحةٌ تستند إلى الحجج والبراهين والأدلة العقلية والنقلية، وهي دعوة مفتوحة مستمرة إلى قيام الساعة، فلا تنتهي وتموت بموت النبي الخاتم ﷺ، بل هي مستمرة بعده يحملها أصحابه وإخوانه المؤمنون برسالته ﴿ أنا ومن اتَّبَعَنِي ﴾ إلى يوم الدين.

وتصدير الآية بـ(قل) يدل على حقيقة الوحي الذي يقوم على تلقي النبي ﷺ من ربه سبحانه وتعالى، وقد تكرر مثل هذا الاستهلال للآية كثيراً في القرآن، حتى بلغ عدد الآيات المصدرة بـ(قل) أكثر من ثلاثمائة آية، وكل ذلك يؤكِّد تلقي النبي ﷺ للقرآن الكريم من مصدر خارج عنه، منزَّه عن كل صفات النقص.

﴿ وَسُبْحان الله ﴾: أي وأنزه الله وأجله وأعظمُه وأقدِّسُه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزَّه عن ذلك كله علواً كبيراً[1].

﴿ وَمَا أنا مِنَ المُشْركين ﴾ [١٠٨] لأنني بريء منهم ومن كل مظاهر شركهم وكفرهم.

ودعوته عليه الصلاة والسلام هذه ليست بِدْعاً بين دعوات الأنبياء قبله،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٥.

بل هي مكملة وخاتمة لها، وكما أوحىٰ الله إليهم أوحىٰ إليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ فالأنبياء رجال أوحى الله إليهم كما أوحى إلى النبي ﷺ، واختارهم من أهل المدن كما اختاره عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة أم المدن وأفضلها وأقدسها، فلماذا ينكر كثير من المستشرقين ظاهرة الوحي بالنسبة للنبي ﷺ، بينما يُقِرُّون بها وبنزولها على موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما من الأنبياء؟!.

ثم وَجَّهت الآية إلى المعارضين والمعاندين الدعوة إلى الاعتبار بآثار الأمم المكذبة المعارضة ﴿ أَفَلَم يَسِيرُوا في الأرض فينظرُوا كيفَ كان عاقبةُ الذينَ من قبلهم ﴾: أي فيعتبروا بآثارهم التي ما زالت باقية بعدهم، فهي كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنَّها لا تعمىٰ الأبصارُ ولكن تعمىٰ القلوبُ التي في الصُّدور ﴾[1].

فآثارهم تدل على أن الله تعالى أهلكهم ونجَّى رسُلَه والمؤمنين كما جاء في قوله: ﴿ ثم نُنَجِّي رُسُلَنَا والذينَ آمنوا كَذَلك حَقًّاً علينا نُنْجِ المؤمنين ﴾[2]. فالعاقبةُ الطيبة لهم في الدنيا والآخرة، كما مرَّ معنا بالنسبة ليوسف عليه السلام ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خيرٌ للذين اتَّقَوا أفلا تعقلونَ ﴾ [١٠٩].

التعقيب السادس

ومهما اشتدت المحن وطالَ عليها الزمن فلا بد أن يأتي الله تعالى بعدها بالفرج، فكل آتٍ قريب، والصبح غير بعيد، لقد امتدت محنة يوسف عليه السلام أكثر من عشرين سنة، ثم جعل الله العاقبةَ الحميدةَ الطيبةَ له، فلا يأسَ من رحمة الله تعالى ولا قنوط، فالنصرُ قد يتأخر، والفرج قد

---

(١) الحج: الآية ٤٦.
(٢) يونس: الآية ١٠٣.

يتراخى، والأمر منوط بمشيئته تعالى وقدرته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده ﴿ حتَّى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَد كُذِبُوا ﴾: أي استيأس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أنهم كذَّبوهم، وأنهم لن يصدقوهم، فالظن هنا بمعنى اليقين كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما ﴾.

فقد لبث نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم بعد أن يئسَ من إيمان قومه دعا عليهم قائلاً: ﴿ قال ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً. إنَّك إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَك ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفَّاراً ﴾[1].

فعندما تشتد المحنة يأتي الفرج من الله تعالى، والمؤمنون في أشد حالات الافتقار إلى رحمته سبحانه ونصره، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أن تدخلوا الجنَّةَ ولمَّا يَأْتِكُم مثلُ الذينَ خَلَوا من قبلكم مسَّتْهم البأساءُ والضرَّاءُ وَزُلزِلوا حتى يقولَ الرسول والذينَ آمنوا معه متى نصر الله أَلَا إنَّ نصرَ الله قريبٌ ﴾[2].

﴿ جَاءَهُم نَصْرُنا ﴾ فجأة على غير انتظار ﴿ فَنُجِّيَ من نشاء ﴾ نجاته، وهم النبي والمؤمنون معه ﴿ وَلا يُرَدُّ بأسُنَا عن القومِ المجرمين ﴾ [١١٠]: أي ولا يُرَدُّ عذاب الله إذا نزل عن القوم المجرمين.

التعقيب السابع

ثم ختم الله تعالى آيات السورة بقوله الكريم: ﴿ لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لِّأُولي الأَلْبَاب ﴾ فما ذكرت القصة إلا لما فيها من العبر والعظات، يدركها وينتفع بها أصحاب العقول الذين يستعملون عقولهم ولا يعطلونها،

---

(١) نوح: الآية ٢٧.

(٢) البقرة: الآية ٢١٤.

ففي الآية دعوةٌ لأصحاب العقول كي يستعملوا عقولهم، ويتدبّروا آيات القرآن الكريم، ليجدوا الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته.

وقد صدَّر الله تعالى سورة يوسف بهذه الدعوة ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾، وجاءت مرةً ثانية في ختامها لتدل على أهمية استعمال الإنسان لعقله بشكل علمي وموضوعي، ومجرّد عن التعصب والهوى، فلا ينبغي المسارعة إلى إنكار الحقائق بحجة أنها أمور غيبية لا تدركها حواس الإنسان، فوقائع قصة يوسف حقائق واقعية تاريخية وليست خيالات وظنوناً وأوهاماً ﴿ مَا كَانَ حديثاً يُفْتَرى ﴾ يُخْتَلق ﴿ ولكنْ تَصديقَ الذي بين يَدَيْه ﴾ من الكتب المنزلة ﴿ وَتَفْصيلَ كُلِّ شيءٍ ﴾ يحتاج إليه في الدين والعقيدة ﴿ وَهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنون ﴾ [١١١]؛ فالإيمان هو الشَّرط الأساسيُّ الأول للانتفاع بآياتِ التنزيلِ الحكيم وما فيها من حِكَم وأحكامٍ وعِبَر ومواعظ.

أسأله سبحانه أن يثبِّتنا على الإيمان، وأن يجعل لنا من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، إنه هو السميع العليم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

المراجـــع

١ ـ كتب السنة المعتمدة.

٢ ـ تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣ ـ الجامع لأحكام القرآن، (القرطبي).

٤ ـ مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني.

٥ ـ نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي، ط. ١، الهند.

٦ ـ روح المعاني، للآلوسي البغدادي، دار الفكر.

٧ ـ تفسير البيضاوي، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.

٨ ـ تفسير النسفي، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.

٩ ـ تفسير الخازن، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.

١٠ ـ أضواء البيان، للشنقيطي، المطابع الأهلية في الرياض.

١١ ـ فتح القدير، للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

١٢ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق.

١٣ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف، للعلمي الغزي، ط. ١، دار الفكر، دمشق.

١٤ ـ مقدمة كتاب تفسير الأحلام، عبد الرحمن جوزو، مكتبة الحياة، بيروت.

١٥ ـ عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، للمؤلف.

١٦ ـ الأنساب والأولاد، للمؤلف.

١٧ ـ حياتنا والموعد المجهول، للمؤلف.

فهرس الموضوعات